غادة السمّان

حبل المرايا القديمة

منشورات غادة السمان

رحيل المرافئ القديمة

تصميم الغلاف والخطوط : للفنان حسين ماجـد
الاشراف الفـني : نبيل البقيـلي

غادة السمّان

رحيل المرافئ القديمة

قصص

منشورات غادة السمان

منشورات غادة السمان
بيروت ــ ص. ب ١١١٨١٣
تلفون ٣٠٩٤٧٠ ــ ٣١٤٦٥٩

الطبعة الأولى : شباط (فبراير) ١٩٧٣
الطبعة الثانية : نيسان (أبريل) ١٩٧٥
الطبعة الثالثة : حزيران (يونيو) ١٩٧٨
الطبعة الرابعة : كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٩
الطبعة الخامسة : أيلول (سبتمبر) ١٩٨٣
الطبعة السادسة : أيار (مايو) ١٩٨٨
الطبعة السابعة : كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٢

الدانوب الرمادي

رجل آخر .

يوم آخر .

فندق آخر .

مدينة أخرى .

وأنا في رحلة تخدير جديدة .

وفي كل مرة ، ألملم أشلائي ، واستقل الطائرة بفرح وترقب مدمن يُعدّ ابرة المورفين ليغرسها في عروقه .

أعبيء ابرة « مورفيني » بالمدن النائية ، بوجوه الغرباء الراكضة في شوارع ماطرة لم ارها من قبل .

اصوات إقلاع الطائرات الى بلاد بعيدة مشمسة في استراحات المطارات عند الفجر المغبر ، وامامي صحف الصباح بلغة لا أفهمها ! ..

الرقص المجنون في الحانات المضمخة بروائح الخمرة والدخان .

الانسلال الى غرف الفنادق الفخمة والوضيعة في ليالي الوحشة مع رجال لا وقت لديّ لحفظ اسمائهم وتدوينها في مفكرتي (للذا أكتفي بوضع خط لكل رجل في صفحة مفكرتي كتلك الخطوط التي يحفرها السجناء بأظافرهم على جدران زنزاناتهم ليعوا ، ولو وعياً مبهماً ، توالي الايام .. وقلما وضعت الى جانب الخط نجمة او نجمتين لاتذكر رجلاً نادراً . بلا حوار ليس هنالك رجل نادر او غير نادر . هنالك فقط حيوان نادر ، كثيف الفرو غنيّه ، رشيق الانقضاض كالفهد ، سريع الحركة كسنقار طير جائع) .

بذلك كله أعبيء ابرة هربي واغرسها في عروقي —كلما جُنَّ في احشائي عذاب الصحو — لاهرب ولانسى .. أنسى .. أنسى .. أ .. ن .. س .. ى ...

رجل آخر .

يوم آخر .

فندق آخر ، وانا مرمية في بهوه ، امام جدار زجاجي كبير يفصلني عن الشارع حيث تمطر ، وتطفو المرئيات خلفه فوق برك الماء والضباب وظلال الصبح الرمادي ، زائغة وغير حقيقية ... مثل حلم رمادي دامع من تلك الاحلام الحزينة التي تنساها فور يقظتك ، وتستيقظ منها دائماً ، ودموع مجهولة الينابيع تغطي وجهك ، واحساس مرير برحيل الاشياء الجميلة وانزلاقها السريع فوق برك الوعي ، يتأكلك ...

« جرسون » آخر . يخاطبني بلغة المانية النبرة . لا افهمها . يسألني بالانكليزية : ماذا اريد طعاماً للفطور ، فاتظاهر بأنني لم افهم . يجرب الفرنسية وأصر على التجاهل . الاسبانية . الايطالية . اظل مصرّة على عدم الفهم . لو جرّب لغات العالم كلها ، التي اعرفها والتي اجهلها ، لظللت ارمقه كطفل لم يتعلم الكلام بعد . انني أصر على التفاهم معه ومع سواه بلغة الاشارة . لغة العصور الحجرية . لغة ما قبل اختراع اللغة والكذب والزيف .. تروق لي اللعبة ، وأمارسها منذ خمسة ايام ، منذ وصلت الى فيينا . بل انني اخترت المجيء الى فيينا بالذات لانني لا اعرف لغة اهلها ...

واخترت المجيء اليها مع (جورجي) لانه اخرس ! انه عشيقي المفضل منذ اعوام لانه اخرس .. حتى حينما يخاطبني بعض اهلها بلغة اعرفها ، أتظاهر بالتجاهل تماماً وأصر على العودة الى عصور ما قبل اللغة .

(يوم علمني والدي السفير ست لغات ، لم يكن يدري أن ذلك سوف يزيد في مرارتي حين اعي فجأة انني اتكلم لغات ستة شعوب ، وأعجز عن التفاهم الكامل مع انسان واحد فقط ... ويوم اورثني امواله لم يكن

يدري اني سأنفقها راكضة بين اقطار الارض مع عشيق اخرس بحثاً عن اقوام نسي ان يعلّمني لغتهم ولا اعرف كلامهم ولن يحاولوا بالتالي مدّ جسر الالغام بيننا .. جسر اللغة الذي لم يقدم أحد على لغمه العلني كما يفعل حكام بلادي ، أكثرهم يمارس ذلك بنية طيبة وقليلهم بتواطؤ خائن وجميعهم مؤذٍ ، وانا .. يا لرعبي ! كنت طيلة عملي في اذاعة ذلك البلد العربي من بعض تلك الاداة ... ولانني كنت من بعض حنجرة تلك الاداة قتلت أخي ، وقتلت ايضاً الآلاف الذين اجهل اسماءهم ، ولم أع ذلك الا يوم اكتشفت كيف قتلت أخي ... يا لفظاعة ذلك كله ! تحالف عليّ طموحي ، وكبتي الانثوي التاريخي والخبث السياسي لرؤسائي ، ووجدتني اداة جريمة .. صوتي — أجمل الاصوات الاذاعية كما كانوا يصفونه — كان أداة الجريمة .. كان فحيح الأفعى ... كنت اعرف ان بعض الذبذبات الصوتية الشديدة التوتر والتي لا تسمعها الاذن المجردة ، يمكن ان تسبب مصرع الكائنات الحية ... ولكنني لم اكن ادري أن أشد الذبذبات الصوتية فتكاً ، هي تالك التي يكتبها موظفو اذاعة مأجورون ، وأقرأها انا وأمثالي من الحناجر الغبية ، ثم تلتقطها الاذن وتترجمها الى كلمات ثم تمتصها دون ان تدري سمها الكامن في كذبها المدروس وكذبها الجاهل .. يا لرعبي ! ... لم أكن أدري انه ساعة انساب صوتي تلك الليلة الحزينة من حزيرانٍ على احدى تلال القدس منذ خمس سنوات ، وكان أخي وفريقه الفدائي يستمعون اليّ في مخبئهم ، كنت اقودهم الى فخ ... فخ ... فخ ... وانني بعد ان انممت قراءة النص الذي قدمه إليّ حازم ، مديري في الأذاعة ، وتركت معزوفة الدانوب الازرق تصدح شارة برنامجي التي كنت اتفاءل بها — لانني اول مرة اكتشفت فيها الرجل عبر جسد حازم كانت الحانها تصدح — .. انها ليلتها كانت المعزوفة الجنائزية لاخي ورفاقه ! .. لم أكن ادري . كنت مشغولة عن ان ادري بحازم . بعيني حازم . بصمته الذي كنت اظنه صلاة واكتشفت في ما بعد أنه كاتم للصوت على فوهة مسدس الغدر .

وكالعادة ، التهيت عن مناقشة كل ما كان فيه من مبالغات بل أكاذيب ـ وكان حازم يفضل يومها اسم مبالغات لأجل المصلحة العامة ـ ، ونسيت التساؤل عن جدوى اعلان انتصاراتنا الموهومة بينما نحن نتقهقر ، لانني غرقت في عيني حازم .. ذلك الرجل الذي كان أبداً جرحي ولعنتي وسوطي . حازم أحببته بكل ما في جسده من طاقة على تخديري ، ورفضته بكل صحوي ، وبعذاب امرأة تجري لها باختيارها عملية جراحية دون تخدير ، أجدني اتذكر ما كان ... من كان يصدق أن عمر الذاكرة أطول من عمر الجرح ؟ ... اوه يا حازم كيف اهترأنا ، وصرت انت مؤسسة للزيف ، وصرت أنا مؤسسة للهرب) ... الهرب .. انا هنا لاهرب .. لانسى ... انسى ... أ .. ن .. س .. ى ..

ولكن لماذا افكر بحازم وانا مع (جورجي) ؟.. لماذا كتب عليّ ان يكون جسدي مع رجل بينما يتابع فكري شجاره مع رجل آخر وعذاباته مع آخرين ؟...

ما زلت جالسة في صالة الفندق خلف النافذة ، والمطر كفّ عن الهطول . جورجي ، تراه ما زال نائماً ؟... ترى كم الساعة الآن ؟... جورجي الراقص الاول في بيروت وصاحب (أرقى) مرقص للطبقة الراقية فيها حيث ذهبت مرة منذ عامين مع بعض (صديقاتي) ... صديقاتي بحكم واقعي الاجتماعي الموروث ، لا انتمائي الحقيقي الواعي والذاتي . **(تعب الراقصون وتعبت . خرج هو الى الحلبة وسيماً طويل القامة كالمنارة يرقص رشيقاً كفهد الغاب ... يعلّم السيداتِ خطوات رقصة جديدة وفي عينيه نظرة نائية كأنه قادم للتوّ من كوكب آخر وسيعود اليه بعد انتهاء الرقصة ... تكاثرت السيدات حوله كالذباب . تثاءبت وأدرت وجهي . حينئذ همست صديقة في اذني : انه اخرس ! ...**

وهنا التهب اهتمامي وعدت اتأمله من جديد وقد صارت مسامي عيوناً شرهة ...

لا . لم تكن قامته المشدودة كالرمح وصدره العريض مثل تل النسيان ...

لا ... فقـــد كنت ركضت قبلها طيلة اعوام ثلاثة في حقل كبير مفروش بصدور رجالي الكثر ، وكنت اقفز من صدر الى آخر شبه ملسوعة .

كنت امرأة تركض مسعورة في الحقول وعلى رأسها حطّ سرب من النحل الذي لا يكفّ لحظة عن لسعها ... ونحل ذاكرتي كالنباتات الخرافية ، كلما قتلت بعضه تضاعف وتكاثر ...

وجورجي اخرس ... معه استطيع ان احيا عالماً بلا كلمات وبلا زيف .. انه عاجز عن النطق ، اي عاجز عن الكذب والزيف ... اي ان احداً لا يستطيع ان يقسره على ان يقول لغماً ابجدياً واحداً ..

وهو مع ذلك قادر على النطق المحدود بابجدية جسده حينما يرقص ، وبأعضائه يستطيع ان يقول لي احبك كما لم يقلها رجل ، وبفصاحة لا تعرف ألاعيب البلاغة .

وخلعت عن عيني نظاراتي ، وكانت صديقاتي يعرفن ان ذلك معناه اني ذاهبة الى الصيد واني اعود دوماً بطريدتي المبتغاة . وبعد نصف ساعة من الرقص المشترك ، نصبت خلالها شباكي كأية عنكبوت خرائب محنكة ، احسست بيده القوية تشد يدي بطريقة اعرف جيداً كيف أفسّر شيفرتها ، وصارت نظراته تلفّني بكهارب سئمت لكثرة ما رماني الرجال بها) ...

ولكن جورجي لم يكن رجلاً كالرجال ... كان يمتاز عليهم بفحولة الرجولة الاساسية المنسية : الصدق ... وكان -حتماً يمتلكها ما دام أخرس !... اي انه كان عاجزاً عن ممارسة الكذب !... وقيل الكثير عن علاقتنا وعني ، ولكن احداً لم يدر ما الذي شدّني اليه حقاً . بل انهم كانوا يدهشون كيف احب رجلاً اخرس . وكنت اقول لهم ان اشارات يديه اكثر تلوناً في التعبير عن الاشياء من (المعلقات السبع) .. وان ضربات قدميه على الارض مظاهرة احتجاج ... ولكنني لم أقل لهم انني احسد حنجرته الّتي تصدر احياناً

همهمات بدائية لها حرية الرياح في الغابات البكر .. حنجرته منيعة بشللها . منيعة بسكينتها الشرسة . منيعة كقلعة مهدمة لا يستطيع احد استعمالها من جديد لعكس الغايات التي بنيت لاجلها اصلاً ... لا يستطيع أحد اغتصابها عنوة او حتى سراً عنها كما حدث لحنجرتي المستباحة ...

حنجرتي المستباحة ... اداة الجريمة ... يا انا (حزيران ١٩٦٧ وكنت اعمل في احدى الاذاعات العربية ... وكانوا يقولون إن صوتي افضل الاصوات الاذاعية العربية ... وكل ما اعرفه هو ان الميكروفون لم يكن قط موجوداً بالنسبة الي ، واني حين كان يضيء النور الاحمر في الستوديو أيذاناً ببدء بث صوتي كنت احس ان ستارة ترتفع بيني وبين الملايين ... والجدار الزجاجي بين الستوديو الذي اذيع منه وغرفة المخرجين ومهندسي الصوت كنت أحسه مثل جدار غواصة زجاجية وأرى على طرفها المقابل ملايين الوجوه الصغيرة بعيونها الفضولية الطفولية الفاغرة وكلها قد ألصقت آذانها التي تشبه آذان الأرانب بالزجاج .. وكنت أحبهم وأقرأ لهم الأشعار الحلوة ، والأخبار الحلوة وغير الحلوة ، ولكنني كنت دوماً أشعر بسعادة ساعي البريد المخلص الذي يركض ليلاً نهاراً بين الأكواخ الريفية ليحمل إلى الناس الأخبار ، حلوها ومرّها ..

إلى أن كانت تلك الليلة المشؤومة في الثامن أم تراه التاسع من حزيران ؟

ولكن لماذا أسميه مشؤوماً لمجرد أنني يومها اكتشفت مستنقع الحقائق المروّعة التي نغوص في قذارتها ، ويصرّ قادتنا على إيهامنا بأننا أبطال في التزلج فوق بحر التاريخ والوجود، مقابل أن يحافظوا على كرسي الزعامات والاستغلال؟.. ذلك الأسبوع ، أسبوع الحرب ١٩٦٧ هل أنساه ؟ يومها أصدر إليّ حازم أوامره بإخراج كل الأغاني (الوطنية) من مكتبتنا الموسيقية، وبكتابة القصائد الحماسية لاذاعتها بين الاخبار والموسيقى ...

وفي الايام الاولى كنت اذيع انشودة « امجاد يا عرب امجاد » وكلي سعادة ، واتخيل اخي ورجالنا على مشارف القدس يدخلون نصفها المحتل ...

وحتّى صبيحة اليوم الخامس للمعركة لم يدر بخلدي ان البلاغات التي كنت اقرأها بكل صدق للناس كانت كاذبة ... واننا كنا نسممهم بالزيف وان حنجرتي – المخملية – كانت أداة الجريمة ... وحتّى حينما شاع أمر الهزيمة بعد العاشر من حزيران ، قرأت كل ما كتبه حازم عن انها نكسة لا هزيمة ... وكل التبريرات والعنتريات التي يظنّ من يسمعها انها تذاع من عاصمة منتصرة لا مهزومة ...

واذكر انني ليلتها أحسست بكثير من الخجل وانا اذيع اغنية «امجاد يا عرب امجاد» ، ولاحظت بأن وجوه الملايين التي كانت تجيء زجاج نافذة الستوديو تنصت للاخبار بعيونها الفضولية الطفولية الفاغرة قد تجعدت وهرمت الف سنة ، وان عيونها فقدت كل الطفولة ، صارت حمراء دامية كبرك الدم ، مليئة بالغضب والشرر والوعيد ... اما آذانها التي تشبه الارانب والتي كانت تلصقها بوداعة الى زجاج الستوديو فقد استحالت الى آذان نمرة غاضبة مرهفة التحدي كأنها تتحفز للانتقام ... وارتجف صوتي بالخجل والعار ... والخوف منهم ...

وغادرت الاذاعة وآلاف الاسئلة ترتجف على فمي ... كنت ما ازال اقدس السلطة والنظام واؤمن بأن «وطني دائماً على حق» ! وبأن حازم هو التجسيد الحي لتلك السلطة .

وانتظرت لقائي الليلي بحازم ... وسألته لماذا خدعنا الناس ؟ لماذا اذعنا بلاغات كاذبة ؟ لماذا نموّه الآن الهزيمة ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ ..

صرخ بي : اذن انت عميلة ؟ ! ..

قلت له بحرقة : لماذا التفكير في بلادي مرادف للعمالة . انا افكر ، فأنا عميل ! ؟ .. لماذا ؟ ..

وعدت اكرر اسئلتي بحرقة ، ولم يرد وانما اكتفى باغلاق فمي بشفتيه . يا لتفاهة الجواب ! لكنني قبلت .

واقبلت عليه بكبت انثى قضت الفي عام تحت رمال الصحراء ، وبعد

الفي عام من الانتظار – ما تزال في دمها ، في كروموزوناتها الموروثة – وجدت نفسها بين ذراعي رجل ... وكانت معزوفة « الدانوب الازرق » . ومع « شتراوس » رحلنا الى جزر « آكلي اللوتس » ... جزر النسيان والخدر ... ومن الفراش المصطخب كموجة تطارد جزيرة هربت «القضية» .. ولاحظت ليلتها ان اصطخاب امواجنا لم يهدأ حتى كاد يغمى علينا ...

لكنني في صبيحة اليوم التالي – صبيحة يوم الهزيمة – دهشت حين ذهبت الى الاذاعة ولم اجدها مغلقة ! ... كنت احسها كدكان استنفدت اغراضها وباعت بضاعتها ووزعت « مورفينها » ، وانتهى الامر ... فوجئت بان الاذاعة لم تغلق دكانها وبحازم ينتظرني وبيده تعليق عليّ ان أقرأه ... (ترى ما الذي يتابعون بيعه ؟) وحملت تعليقه الذي يبين « فضائل الهزيمة للعرب » وكم كانت ضرورية ، بل ويجعل منها المنقذ الاول ، ودخلت الستوديو مستلبة الارادة كعادتي كلما غرس نظراته في شراستي وصرعها . حاولت ان اقرأ ، لكن وجوه الملايين التي كانت طفلة وجدتها وقد ازدادت شيباً وشيخوخة ... وعيونها الحمراء الدامية كبرك الدم قد ازدادت ضراوة في غضبها وشررها ووعيدها ...

حاولت ان اقرأ ذلك التعليق ، لكنني شعرت بالخجل امامها بل وبالخوف من نظراتها المتوعدة الهائجة ، وحنجرتي المخملية نبت فيها الشوك ، وخرجت الكلمات عبر الشوك ممزقة مجرحة ...

صار صوتي مثل صرير النهاية لاسطوانة منسية تراوح ابرتها فوق الدائرة الاخيرة ... صوت بين النشيج وآهة رجل يحتضر .

بعد ان غادرت الستوديو هاربة من ملايين العيون الهائجة ، لحق بي حازم مؤنباً : ماذا دهاك اليوم ؟ .. كانت قراءتك في غاية السوء .

– لانني كنت اقرأ اشياء لم اعد قانعة بها .

صرخ بي : رأسك الصغير لم يخلق ليفكر وانما لينتظرني في فراشي . اذهبي الى هناك وانتظريني ...

وحملت «رأسي الصغير» وذهبت، وجاء بجسده «الكبير» ليتولى غسل دماغي من جديد... لكن تلك العيون الحمر كبرك الدم المليئة بالتهديد والوعيد كانت ترصدني... كانت تغطي الوسادة والفراش والجدران والسقف وحتى زجاج باب شرفة غرفة النوم الذي كان يحمل الينا الريح الغربية فيما مضى، رأيت فوقة آلافاً من هذه العيون تحدق بي بتأنيب مروع وتهديد حقيقي. عيون ملايين من الجماهير الغاضبة التي جاءت تحمل زبانيتها الى المقصلة... وجمدت ليلتها الريح ومات النسيم وفاحت من البحر رائحة السمك الميت وخيل الي ان كل حيوانات البحر واحيائه قد ماتت وانه جف، وفي الظلمة خيل الي ان فوهة هائلة قد انفتحت مكانه في جسد الارض، فوهة معبأة بالموت الذي سيزحف علينا جميعاً.

وكنت ليلتها مستعصية على التخدير، وحينما اخبرته بملايين العيون الغاضبة على زجاج الستوديو التي تلاحقني اينما ذهبت، وتخيفني وتفسد علي قراءتي، ضحك مني ساخراً، وسألني ان كنت بحاجة الى اجازة، وقلت له انني بحاجة الى ان اكتب قصيدة جديدة، وقال لي ان المجلة التي يشرف عليها ترحب دوماً بقصائدي الغزلية وبرسوم فواز، فقلت له انني لا اشعر بالرغبة في كتابة قصيدة غزلية وان فواز كف عن الرسم ورحل كأخي مع الفدائيين...

وحينما عدت الى البيت وجدت شبحاً ينتظرني امام الباب، وبين شفتيه مفاجأة لا تحتمل.

فوجئت بفواز صديق طفولتنا ورفيق حروفي ورفيق اخي.

سألته: أين أخي ؟...

الضماد الابيض الذي كان يحيط بجرح في رأسه دفعني الى تكرار السؤال بذعر: اين اخي ؟...

وفي صمته عرفت الجواب...

وعرفت انني انا تسببت في مقتل سبعة بينهم اخي ، وفواز وحده نجا باعجوبة ...

وصوته المرتجف قاطن ابداً دهاليز دماغي وهو يقول دونما تأنيب : سمعنا صوتك وكنت تذيعين بلاغاً فهمنا منه ان احد الجيوش العربية قد وصل مشارف القدس وسيبدأ هجومه لتحرير نصفها السليب . كنا نعسكر تجاه بعض الجيوب الاسرائيلية والمراكز ، قررنا تطهيرها ووّقتنا ذلك بحيث تصل القوات العربية في الوقت اللازم ... وهجمنا دون ان ندري اننا سنكون وحدنا ...

طُوِّقنا ...

صمدنا ...

لم يصل احد.

صمدنا حتّى نفدت ذخيرتنا .

صمدنا حتّى لم تبق فينا اصبع تشد زناداً .

وطبعاً لم تصل الجيوش العربية كما وعدتنا البلاغات الكاذبة على انغام « امجاد يا عرب امجاد » ، لم يأت احد سوى زبانيتهم . وحدي هربت . لقد كانت غلطتنا طبعاً ان نعتمد على مصادر اذاعية لخططنا ، لكن شقيقك حين سمع صوتك تلك الليلة على مشارف القدس التهب حماسة . وانت تعرفين عناده ... وكان ما كان . وتهدج صوت فواز وصمت .

كالمنومة ذهبت في اليوم التالي لاتابع عملي ، ولاقرأ مزيداً من الصفحات في تمجيد « الهزيمة » التي اخترعوا لها اسم « نكسة » ، وسلمني حازم بعضاً من سطورها المسمومة طالباً الي اذاعتها . سألني لم أنا شاحبة هكذا ؟. لم ارد . دخلت الى الاستديو . للمرة الاولى لاحظت وجود الميكروفون الاسود المنتصب كحية رقطاء ، وحينما اضيء النور الاحمر اشارة لي بالكلام ، تحول الميكروفون الى افعى « كوبرا » لسعتني فوراً في حنجرتي ، ومع ذلك كافحت لأقرأ ، لكن الشوك في حنجرتي ازداد نمواً مثل العليق

الخرافي ، وبدأ سم الكوبرا يسري في عروقي . يملأني بالحذر . تماسكت . بذلت كل ما في جهدي من طاقة لأقرأ سطراً ، لكن العيون خلف الجدار الزجاجي كانت تزداد تحديقاً وضراوة وغضباً . وفوجئت بوجه اخي بينها ثم بدأ الدم يسيل منها يسيل يسيل دم دم دم يغسل وجه اخي ، يغسل الزجاج ثم يتسرب الى حيث انا ، ويعلو ويعلو ويغطي قدمي ثم ركبتي ويعلو بسرعة ويغطي صدري وحنجرتي واختنق بالدم واعجز تماماً عن قول اية كلمة ... فقط اصرخ واصرخ واصرخ ...

وطبعاً قطعوا البث ، واعتذروا للناس عن العطل الفني الطارىء ! وقالت الصحف انني مصابة بانهيار عصبي ... وانني فقدت صوتي .. ولكن احداً لم يصدق قولي ان الميكرفون افعى .. وان عيون الملايين كانت تنزف ... وان دمها خنقني ... وانني كلما حاولت ان ادخل أي استوديو لأقرأ ، لاحقتني الافعى ولعنة العيون الدامية ...

وبعدها بأيام قال الطبيب ان والدي مصاب بذبحة قلبية ... وقلت لهم انه مصاب بذبحة ابوية اثر مصرع اخي ، ولم يصدق احد ... وقلت لهم ان ما يمزقنا هو ان اخي مات عبثاً ... مات ضحية التوريط ... ضحية العهر الاعلامي ... وبينما والدي يموت ارتجف صوته : حاولي ان تستعيدي صوتك الضائع ...

قلت له : لن اذيع بعد اليوم . لا يهمني صوتي ...

كرر : حاولي استعادة صوتك الضائع ... انني اتحدث عن صوتك لا عن اوتارك الصوتية ... اكتبي ... حذار من السقوط في الصمت ... وتذكري أن أوتار يدك لم تنقطع بعد ... اكتبي ...

وجاء حازم يعزيني بأبي وأخي ، ولا ادري لماذا احسست وانا اصافحه بانني اصافح قاتلهما ... وجاءني ليلاً وحده ليمارس غسل دماغي ، لكن افيونه كان قد فقد تماماً تأثيره علي ... وتخديره ..

وانطلقت في الدنيا أبحث عن مخدّرات أخرى ... لأنسى .. أنسى .. ا .. ن .. س .. ى)

انا هنا في فيينا لأنسى . يجب الا انسى ذلك... ما الذي حدث في هذه الرحلة بالذات ؟.. هل هو حدسي بأن شيئاً لا حدّ لفظاعته سيقع ؟... ام ان محاولة تخدير الروح عبر تخدير الحواس ، فاشلة في النهاية ، وكل رحلة الى تل النسيان لا تجدي ، اذا كانت الدرب اليه نهراً من الكحول وقارباً من جسد رجل ؟

ام تراه وجه فواز الذي التقيته صدفة في احد شوارع بيروت ليلة رحيلي ؟

(كنت اتسكع وحيدة في شارع الحمراء . انعطفت الى طريق فرعية تسطو عليها الظلال ، وفي ظلمتها قفز وجهك فجأة أمام عيني كالرؤيا . وجهك يا فواز الذي يشبه وجه اخي ... واغمدت سؤالك في صدري : حتام تتابعين هربك وتمارسين انتحارك ؟ ... متى تعودين « الينا » ؟ ... كلمة « الينا » كنت اعرف كم هي كبيرة واعرف جيداً ما تعنيه وقد صرت يا فواز مسؤولاً فدائياً كبيراً في احدى المنظمات ... ظللت صامتة . كنت احس ان لك وحدك حق تقريعي ، لذا ظللت صامتة . معاً ، قبل اعوام عرفنا طعم البكاء العلني (ويسميه الناس نجاحنا) . معاً كنا نخلق توأماً سيامياً للعطاء ، وكانت رسومك امتداداً لكلماتي وترجمة لها ، وكلماتي ترجمة لرسومك ... كنا اتحاد حبات القمح في السنبلة ... ثم مر بي الزلزال ... لا اريد ان اتذكر ما كان ... اريد ان انسى ... ودون جواب وجدتني اهرب من عينيك ، وكان فيهما كثير من الحب والتأنيب ، وقليل من الشفقة ، لكنه يكفي ليمتل) ! ...

ليت جورجي يسارع في الهبوط من غرفته ، ويريحني من عذابات الذاكرة ... جورجي مخدري ، فهدي الجميل الفرو ، الرشيق الانقضاض . انها التاسعة . متى ينهض ... عدنا من سهرتنا البارحة في الخامسة صباحاً . انقضت اربع ساعات وهو نائم . كيف يستطيع الناس النوم طويلاً هكذا ؟ ... اما انا فقد نسيت كيف يكون النوم دونما تخدير ... اني مخدرة في كل لحظة ،

ليلاً نهاراً ، لا انام قط حقاً ولا اصحو قط حقاً .. الجرسون يعود الي . يسألني ماذا اريد طعاماً للفطور . ويسكي طبعاً . يكرر سؤاله دهشاً، اكرر طلبي بكلمة واحدة ، مثل عطش مشرف على الموت في الصحراء يطلب ماء . ويسكي . ويسكي . لماذا لا اشرب الويسكي في التاسعة صباحاً ما دمت انا سأدفع ثمنه ؟.. انه لا يدري انني اخاف من الجلوس طويلاً امام اي حاجز زجاجي ، او جدار زجاجي . لان العيون الدامية كبرك الدم تبدأ بالزحف فوقه حين إخلد الى نفسي ، ويطل بينها وجه اخي . ثم يتدفق الدم وأحس بحلقي يختنق ... انـني عاجزة عن البقاء وحيدة في اي مكان وانا بكامل صحوي ، لان اوتاراً غامضة تبدأ بالتوثب في اعماقي ، وتركض فوقها ذكرياتي مثل يد وحشية العزف ، واسمع صوت انين مكتوم يهب من داخلي.. في البداية كنت ابحث حولي عن صاحب هذا الانين ، فقد يكون مختبئاً تحت السرير او خلف الباب او خلف ستارة الحمام ، أو داخل الخزانة ... وابحث وابحث ، وبعد مزيد من الانصات ، صرت واثقة من ان هذا الصوت يهب من داخلي انا ، محملاً بالاحزان والنحيب مثل صوت الريح القادمة من مقبرة ضحايا لم يثأر لهم ...

يعود الجرسون حاملاً كأس الوسكي . اقذف به في جوفي ، واشير اليه بيدي : «كأس اخرى» ... اعاود النظر عبر الزجاج الى الشوارع .. لقد استيقظت المدينة .. ها هم الناس يسارعون الى اعمالهم وفي وجوههم بقايا النوم المعافى ... منذ زمن طويل لم أسر في قافلة الذاهبين الى العمل ... من زمن طويل هجرت كل شيء ... تجاهي كنيسة (سان استيفان) ، اتأمل قرميدها الاصفر والاخضر والبني الفسيفسائي التنضيد بنسره ذي الرأسين – رمز الامبراطورية النمساوية التي لم تعد امبراطورية – يطل من عل . تخربت الكنيسة ايام الحرب وتم اصلاحها والقرميد بأكمله حديث ... انه يبدو مثل قبعة جديدة فوق رأس رجل ثيابه اثرية وعتيقة ... ولكن ، هل يمكن حقاً اصلاح اي شيء ؟...

(هل يمكن قط ترميم آثار الدمار في الابنية والنفوس ليعود كل شيء كما كان؟ كما كان؟) ...

يعود الجرسون بالكأس الثانية .

ابتلعها واشير اليه طالبة المزيد .

تبدو الدهشة في عينيه .

لو كان مثلي ، يرى كيف بدأت العيون الدامية كبرك الدم تتفتح فوق زجاج صالة الفندق – كما كانت تتفتح فوق زجاج الاستديو – لركض حاملاً كل ما في فيينا من كحول ... ونجلس يشرب معي حتى ... ننسى ... أنا هنا لانسى ... يجب ان اكف عن التفكير هكذا ... من الافضل ان اذهب الى جورجي واوقظه ... ولكنه سينهض ليؤنبني بقية النهار بصمته الشرس ... لماذا لا انهض واكتب ؟...

كنت دوماً اجد في كتابة الشعر التعبير الحقيقي عن ذاتي ... ماذا حدث ؟ وهل انني اذ ضيعت ذاتي صرت عاجزة عن الكتابة في الوقت الذي اختاره ؟..

(رفع حازم كأسه وقال لي : ابتلعي نبيذك ثم اكتبي قصيدتك ، وتغزلي بي ! ...

قلت له : لا استطيع ان اكتب الا وانا في صحوي الكامل . اعجز عن الكتابة اذا كنت ثملة ، او اذا كنت مخدرة ... الكتابة ذروة صحوي وذروة عافيتي) ...

ولكن ماذا حدث ؟ متى كففت عن الكتابة ؟... متى بالضبط ؟.. حسناً . اعرف انني لم اكف عن الكتابة يوماً واحداً ، ولكنني لا اعني الآن «بالكتابة» تلك الاوراق اللاهثة المبللة بأمطار عشرات الموانىء ، تلك الاوراق المبعثرة التي اودعها بيوت اصدقائي كلما رحلت ، وادور بها في حقائب السفر ، ارعى تشردها ، واحنو عليها حنوي على عذابي ... ارى فيها الخطوط البيانية لسقوطي ... ارى فيها تفتح جراحي في حقل السطور ، ونزفي الدائم السري ... لا ... ولكنني اعني : متى كففت عن الرغبة في

ايصال صوتي الى الآخرين ؟... ومتى بالضبط فصلت نهائياً بين شيئين صارا متباينين تماماً في نظري هما : « الكتابة » و « النشر » ... وفرقت نهائياً بين « الرغبة في الكتابة » و « الرغبة في النشر » وكلاهما توأم واحد في الفنان المعافى ؟.. هل كان ذلك يوم لدغتني الافعى في حنجرتي وفقدت صوتي ؟... هل سقطت نهائياً ذلك اليوم ام كان بداية سقوطي ؟...

(ذلك الصباح في تموز ١٩٦٧ وصلتني رسالتان الى دار الشابات — لانوف — التي كنت اقيم فيها بشارع « ريشيلليو » بباريس ، حيث رحلت بعد الهزيمة ومصرع ابي واخي ، وبعد ان فقدت عملي في الاذاعة إثر تمرد حنجرتي — المسمى رسمياً بفقدي لصوتي — . فرحت بالرسالتين لانه كان قد انقضى زمن لم التق خلاله بانسان اعرفه ، فضيته في كتابة قصيدة طويلة جديدة كل الجدة ، مختلفة الايقاع والموضوع عن كل ما سبق وكتبته ، كأن اوتار حنجرتي هاجرت منها لتنضم الى اوتار اصابعي الممسكة بالقلم ... وكنت قد بعثت بالقصيدة الى فواز ليترجمها الى رسوم كعادته ، وليعطيها لحازم بعد ذلك لنشرها في المجلة التي يشرف عليها ...

رسالة فواز تودعني . يقول لي فيها ان قصيدتي شيء جديد ، وان طرحي الرمزي فيها لقضايا الجنس والدين والسياسة والهزيمة جاد ومدهش ، وانه يتمنى ان يرسمها ليظل عطائي وعطاؤه اتحاد حبات القمح في السنبلة ، الا انه مضطر الى ان يقول للرسم وداعاً ، لانه صار قانعاً بان مرحلتنا هذه ، بحاجة الى من يحمل البندقية بدلاً من الريشة ... والمتفجرات بدلاً من الاصباغ والالوان ... وانه سيكرس نفسه نهائياً للقضية ... وبأكثر الاساليب مجابهة عملية واضحة ومباشرة . اما رسالة حازم فكانت تقول : تجنبي مواضيع الجنس والدين والسياسة ، والا كان مصير كل ما تبعثين به كمصير قصيدتك « المسترجلة » هذه ، اي عدم النشر ... تذكري ايضاً انني لا استطيع ان انشر لكاتبة سيئة السمعة ، وان اخبارك التي تصل الى بيروت كلها فضائح .. وداعاً .

عدم النشر ! اذن نحن امام اختيارين : اما ان نوُجر حناجرنا ، او ان نستنكف عن التفكير وعن طرح مآسينا الحقيقية التي تشغلنا في كتاباتنا . مطلوب مني كي ينشر لي حازم ، ان اكتب معلقات تتحدث عن الخيول في عصر الصواريخ ، وعن امجادنا « امجاد يا عرب امجاد » في زمن الهزيمة ، وعن الحب العذري في ضوء القمر على الشرفة بينما الرعب يجوس بلادنا بالدمار ، ويهدم شرفاتنا وسقوفنا ، ويتهدد كياننا كله ، او ان اكتب ما اوُمر بكتابته بلغة غدارة مداورة مخادعة تخفي الحقيقة تحت برقع الوهم بالعظمة كتلك البيانات التي كان يسطرها حازم واتولى انا قراءتها ... يومها احسست بالغضب ... بالحقد ... وقررت ان اعود ، وان اناضل ضد كل الامواج المتشابكة التي كانت سبباً في هدر حنجرتي ، وملئها بالماء المالح وخنق صوتي ، وهدر اخي .

إذن بيروت تتحدث عن فضائحي ! وانفجرت اضحك.. « شرف البنت » عندهم قبل « شرف الارض » .. وهزيمة الوطن : الفضيحة الكبرى ، يتخدرون عنها باختراع فضائح صغيرة يتحدثون عنها بحسد .. والرجل في بلادي اهون عليه الانسحاب من الحرب والعودة مهزوماً بكل هدوء وصمت ، من الانسحاب مهزوماً من فراش امرأة .. يجب ان اعود .. واذا كانت حنجرتي تختنق كلما حاولت ان اقول شيئاً ، فليكن لي من اصابعي حناجر .. ولاكتب ..

قررت ان اذهب لشراء بطاقة العودة بعد ان ازور الطبيب تنفيذاً لموعد سابق ..

وغادرت الطبيب بحثاً عن اول حانة لانسى عبثاً كلماته : سيدتي : اهنئك . انت حامل .. ستنجبين طفلاً جميلاً مثلك ..

طفل جميل ! .. ابن ليلة العاشر من حزيران ، ابن لحظات التخدير المجنون هرباً من الهزيمة ، كيف يمكن ان يكون جميلاً ؟ .. كيف كيف كيف يمكن ان يكون ؟ .. وبدأت اشرب ، وخوف حقيقي يملأني كلما

نظرت الى بطني .. كنت اتخيل تارة ان كائناً هلامياً يسكنه . بشعاً ومشلولاً كالهزيمة .. وكنت اتخيله تارة أخرى تنيناً من القبح وتجسيداً حمياً لكل الامراض النفسية التي كونته : هو ابن الهزيمة ..

وغادرت البار وانا اعرف انني احمل في احشائي ابن الشيطان . احسست بالعار ، لا لانني حامل بلا زواج ، ولكن لان ذلك الطفل ـ الشيطان ، سيظل ابداً يذكرني .. عار الهزيمة ، وعار التخدر عنها .. إنتابني الذعر .. كيف سأقضي بقية عمري ـ ان كانت هنالك بقية ـ مع ذلك النصب التذكاري الحي لفظاعة كل ما كان .. اي رصيد انتقام احمل في احشائي .. ابني ، ابن الشيطان ، امقته واحبه في الوقت نفسه بالمقدار نفسه .

ولم اذهب ليلتها لشراء بطاقة طائرة .. ووعيت وعياً مبهماً بانني صرت محكومة ابداً بالغربة .. محكومة بان احترف السياحة ، وامتهن التخدير ، واستوطن الضياع ، واستميت لانسى .. انسى .. ا ..ن .. س .. ى ..) ..

ايها الجرسون ، هات كأساً اخرى ، فها هو النهار قد فغر عينيه في وجهي ، والظهيرة اقتربت ، وجورجي لم ينهض بعد ، وانا ازداد وعياً بكل ما كان ، بفظاعة ما كان ... استعصى على التخدير .. منذ جئت فيينا وانا استعصي على التخدير ، رغم انني جئتها وكلي أمل في النسيان .. اخترتها لأنني سأكون فيها خرساء وصماء ما دمت لن افهم حرفاً مما يقال ولن اقرأ صحيفة ولن أفهم نشرة الاخبار ولا تمتمات الاصدقاء .. وجورجي سيظل صامتاً ..

وسأحيا في عالم من السكينه الساكنة .. هذا ما كنت احلم به قبل مجيئي ..

ولم أكن ادري ..

انه حين يصمت العالم الخارجي تماماً ،

ستبدأ اعماقي بالانين والعويل ،

وان حنجرة مقطوعة الاوتار ،

لا تعني بالضرورة ذاكرة مقطوعة الاوتار ،

وان عمر الذاكرة اطول من عمر الجرح ،

وان فيينا بالذات لا تملك الا ان توقظ جرحاً كجرحي ..
فيينـــا ..
عتيقة حزينة مثلي ..

فيينا الامبراطورية الهرمة كقلبي ، فيينا المتآكلة كأيامي ، فيينا شاهدة عالم يتداعى واذا لم يتجدد انتهى ، فيينا حيث البط الابيض الكسول ، يجوس بهدوء وصمت مطلق — لا ينتميان الى عصره — فوق سطح البحيرات الساكنة التي تتوسط الحدائق التي تذكر بجزر آكلي اللوتس .. جزر النسيان . وانا بطة بيضاء حزينة اركض من خط الاستواء الى القطب بحثاً عن حديقة سكينة ونسيان . ولكن هل النسيان ممكن ؟ وبالمقابل هل الترميم ممكن ؟ فخارج الحدائق ، يركض الاطفال الى مدارسهم ، ويطالع الشبان الكتب المليئة بالافكار الجديدة وفوقها تركض الصواريخ ، وبط النسيان الابيض اضحى محاصراً ومهدداً .

ثم ان الصمت لم يكن قط مطلقاً وكلياً في فيينا .. هنالك تلك الموسيقى الغامضة في الجو .. ذلك المزيج من المجد الغابر المخدر ورحيل المرافىء القديمة والتوق الى التجدد .. يخيل الي ان عباقرتها الموسيقيين امثال بيتهوفن وهايدن وشتراوس وموزار وشوبرت ، لم يفعلوا شيئاً اكثر من الانصات الى الالحان المتناثرة في اثير فيينا والتقاطها ثم تدوينها ثم اعادة بثها . كل التقطها باسلوبه ولكن الموسيقى ما تزال في الجو .. انها صوت حضور المدينة وتنفسها بكل ما فيها ، بتاريخها وبحاضرها ، صوت البيوت بطابعها الخاص العريق ، والكنائس التي تضيء في الليل وتصير احجارها بنقوشها مثل قطعة من (الدانتيلا) الابيض فوق مخمل الليل الاسود ، صوت احيائها القديمة التي تفخر بعتقها وتدون على ابوابها تاريخ بنائها الذي يرجع الى ما قبل قرون بكل فخر ، وانا لا املك الا ان اسمع هذه الاصوات المنبهة للذاكرة ، كما اسمع صوت ضحك الاطفال في عجلة مدينة ملاهيها ، تلك العجلة الضخمة التي يساوي ارتفاعها ارتفاع تل وحينما يتصادف ان

تتوقف ويكون مقعدك في الذروة ترى فيينا وقد انبسطت تحت قدميك .

(توقفت العجلة ونحن راكبان في المقعد الذي تصادف وقوفه في الذروة .

في القاع ، بدت فيينا حفنة من الاضواء المتناثرة ، وديعة وبريئة ، تذكرني بمشهد دمشق من جبل قاسيون المطل عليها .. دمشق .. انفجرت ابكي ودفنت وجهي في صدر جورجي ، أبكي واهذي : « منذ ثمانية اعوام .. منذ هجرنا دمشق عرفت الدنيا ولم اعرف الطمأنينة او اليقين .. كنت اراها هكذا من قمة قاسيون ، تماماً كهذا المشهد ، مضيئة وطيبة ، وكان اليقين يملأني بالمرافىء كلها ، اليقين بالحب والرجل والوطـن والمستقبل .. اي عذاب كانت الطبيعة تختزن لي .. اي عذاب » .. وجورجي صامت . كم هو رائع ان يكون اخرس لان ليس هنالك ما يقوله اي انسان ليرد على عذابي .. وتهوي العجلة بنا الى القاع ، واصرخ ، اصرخ بأعلى صوتي : لا .. لا اريد ان اسقط .. اعيدوني الى قمة قاسيون .. اعيدوا دمشق الى قلبي .. أعيدوني الى قلب دمشق . ويأتي الموظف المكلف بادارة العربة ويطلب الي الهبوط منها وقد ظن ان الارتفاع اخافني .. لو يدري ان ثمانية اعوام قد انبسطت امامي في لحظة ، وكان لا يمكن الا ان اصرخ واصرخ واصرخ .. واحسد جورجي العاجز عن الصراخ) ..

صوت دقات ساعة صالة الفندق ... انها اللغة الموحدة في اقطار العالم كله ... لا املك الا ان افهمها ... تدق ١٢ دقة او اكثر لا ادري ... لا... كانت ١٤ دقة ... لا يهم ... لم احص كم كأساً من « ماء النار » شربت . وليس من الضروري ان أعدّ الآن دقات الساعة ... فلامعن ضياعاً ...

كأس اخرى من ماء النار ايها الجرسون ... اخاطبه بالانكليزية ودونما اشارات ... ما جدوى ان انذر « صيام الصمت » اذا كانت الجدران ، حتى الجدران الصامتة صارت تخاطبني ...

(جدران درج بيت بيتهوفن عتيقة ومهترئة ، تنزف وحشة وهمهمات ، تروي كم مرة سقط بيتهوفن على احجارها ، كم مرة نزف ، كم مرة

تمسك بجدرانها جاراً جسده الى «وكره». بصمات اصابعه على الدرابزين تروي حكايا جوعه وتمله وعذاباته ...

كنت قد اصررت على زيارة بيت بيتهوفن في فيينا لولعي العظيم بموسيقاه، ورافقني جورجي لـنرى اين عاش ذلك العبقري، وأين تمزق، واين انطفأ، واين داهمه الصمم الذي حرّره من سماع تفاهات المحيطين به.

ادور في الدار الصغيرة المتواضعة، المكونة من غرفتين صغيرتين ونافذتين كبيرتين، اتأمل الجدران بحثاً عن بصماته. ألحظ انهم اعادوا طلاءها حين حولوها الى متحف صغير. ورغم ذلك اسمع همهمات غامضة ما تزال تفوح من الجدران ... اصوات يختلط فيها الكلام بصوت تنفس صدر مذبوح .. كلما شاهدت اشياء بيتهوفن المتناثرة يزداد الصوت نفاذاً الى اعماقي ... ها هي خصلة شعره ... مقبض بابه ... علبة أدويته ... معزفه ... علبة سكره ... ادور بينها واسمع الاصوات النازفة من الجدران تتعالى وأحس ببعض الدوار، وفي قاع الاصوات اسمع مقطعاً من السيمفونية التاسعة نائي العزف كأنه آت من عالم آخر ... واظل ادور بين اشيائه ثم اتحجر أمام ورقة من اوراقه..

انها وصيته ... بالاحرى رسالة كتبها تمهيداً لانتحاره. يعلن فيها قرفه من الحياة وعبثها، ويأسه من الآخرين وحقاراتهم الصغيرة والكبيرة .. كتبها يومئذ ولم ينتحر ... لماذا لم ينتحر؟ ... وكأنني اكتشفت للمرة الاولى امكانية الانتحار، وبالاحرى استوعبتها للمرة الاولى ... وسمعت ضربات السيمفونية التاسعة المجنونة ... ووجدتني اصرخ بملء صوتي — وبالعربية — وانا ابكي: «نسيت ان انتحر ... كيف نسيت ان انتحر. لماذا لم تذكرني يا جورجي ؟؟» ...

ويتلفت الزوار القلائل في المتحف الصغير نحوي بكثير من التأنيب الصامت والازدراء ... يضمني جورجي الى صدره ويهرب بي من النظرات المفترسة ...

شعرت انني بدأت أنهار علناً . لكنني كنت فرحة . لاكتشاف إمكانية الانتحار كأنني الحظ ذلك لاول مرة في حياتي ...

خرجنا من بيت بيتهوفن ... استقللنا سيارة صديق كان قد اعارنا اياها ، وقادها جورجي عبر حي «جرينزيلك» ملتقى فناني فيينا الى تل مليء بالغابات ، ثم استدار في طريق جانبية مقفرة تماماً . وكانت عيناه جمرتي غضب مخنوق ، وحين اوقف السيارة فجأة قرب دغل كثيف ، خيل الي أنه سيخنقني ، ويدفن جثتي . ثم يعود وقد استراح من نوباتي المفاجئة ، التي لا يرى لها مبرراً ، فأنا لم اخبره قط بما يتأكلني من الداخل ... لكنه لم يفعل . بدلاً من ذلك ، هبط الى الغابة ، وانتقى شجرة كبيرة عانق جذعها بيديه ، ورفع رأسه الى السماء التي كانت تغطيها فروع الاشجار ، واطلق من صدره صوتاً كعواء ابن آوى في ليالي الصقيع والعاصفة ... واشار الي ان افعل مثله . مذهولة ، تعلقت بالشجرة العتيقة كأم ، ورفعت رأسي الى الاعلى ، وبدت اغصان الشجرة مثل الدرب الخضراء الى السماء ، وعويت مثله بملء صوتي ، بملء جرحي ، بملء احتقان احزاني ... ادهشني كم استرحت لذلك الانتحاب البدائي كأنني حواء تبكي مصرع اول اولادها ... وظللنا هكذا نعوي كذئبين يطرحان اسئلتهما الحائرة واحتجاجهما اللامجدي في وجه صمت الغابة والسماء والعالم المقفر والمرافيء الراحلة ... ثم شعرنا بالاعياء ، وبالعرق يغطي وجهينا ، وسقطنا تحت الشجرة متلاصقين ... واكثر تعباً من ان نبكي او نتعانق) ...

شيء ما في فيينا فجّر جرحي منذ لحظة وصولنا . كل ما في فيينا فجّر جرحي . أم تراه لغم الجرح قد نضج ؟

ايها الجرسون هات كأساً اخرى . ربما كان من الافضل ان اوقظ جورجي. فلأترك جورجي يستريح مني قليلاً ، فقد حيرته وأرهقته بهذه الرحلة ، وسببت له كثيراً من الحرج امام العيون الفضولية .

(هبطت وجورجي من الطائرة وركبنا سيارة شركة الطيران التي تقلنا من المطار الى مدينة فيينا ... فوجئت بأن مدخل المدينة كله مقابر . مقابر على جانبي الطريق ، مقابر من كل الالوان ... من الرخام الاسود ، والرمادي ، والابيض .. كلها يلتمع في المطر . ركاب الباص كان اكثرهم من العجائز – سياح اغنياء – وبدوا مرهقين اثر رحلة جوية حفتها المفاجآت والمخاطر . كانوا صامتين كركاب قطار الموت ، والسيارة تنزلق بنا بين المقابر ... مقابر لا نهاية لها ... وغرقت في كابوس مروع ... ايقنت لسبب اجهله ، اننا جميعاً نحن ركاب « الباص » ذاهبون الى حيث ندفن وانهم جميعاً مثلي قد ماتوا منذ خمسة اعوام في مكان ما .. وزاد في احساسي هذا ان سائق « الباص » لم يكن مرئياً . كانت هنالك غرفة خاصة به تحجبه عنا ... وخيل الي انه مارد بعين واحدة سيتسلى بحفر قبورنا بينما هو يغني .. وصرخت احذرهم ... وصرخت ... وعبثاً اسكتني جورجي وركاب الباص الذين تطوعوا باسداء النصح اليه بحملي الى الطبيب النفسي) .

لقد سببت له الحرج حتى بضحكي ...

(كنا في قصر (شونبرون) الامبراطوري الذي حولوه الى متحف ، نقف في غرفة « المرايا » التي عزف فيها موزار لاول مرة ، وكان عمره ستّ سنوات ... انها غرفة تغطي جدرانها المرايا ، وحين تقف بينها تنبت لك داخلها ملايين الصور ... وقفت ، ورأيت داخل المرايا نسخاً عن وجهي لامتناهية العدد ... ملايين من عيوني أحدق فيها ... وتساءلت اية واحدة هي انا ... وارتعت وانا اعي فجأة وعملياً انني كلهن ... انا اكثر من امرأة واحدة ، ومنذ اطاحت بأخي تلك القنبلة في القدس انقلبت عربة عمري ، وتدهورت ، وتمزقت وعند كل منعطف انشطر عني وجه مني ، وصرت اكثر من امرأة واحدة ، تعيش عمراً اقل من واحد ! ... وكنت كيفما تحركت بين المرايا ارى مزيداً من وجوهي تحدق بي وكل وجه يذكرني بلحظة من لحظات عمري ... وانفجرت اضحك ! اية لعبة شيطانية

هي هذه المرايا . يجب ان احطمها . ورفعت مظلتي الواقية من المطــر لاكسرها وانا اضحك بجنون ولكن يد جورجي الذي كان يراقبني كانت اسرع من يدي ... وقبل ان يقول احد شيئاً من السياح المذهولين او ينادي رجال الشرطة سارع يشدني الى الخارج لنمضي الى غابة العواء ، وعند جذع الشجرة نفسها نرفع احتجاجنا الى الوجود كالذئاب الوحيدة ... نعوي ونعوي ... ونستريح ...) .

ايها الساقي هات كأساً اخرى ... اشعر برغبة في العواء ، الآن ، فقد ادمنت هذا الاسلوب لأهدأ ... ماذا لو انطلق عوائي الآن في الفندق ؟.. سيركض موظفو الفندق ويطلبون سيارة تنوح وهي تلملم (مكسوري الروح) من شوارع المدينة وتقلهم الى حيث يصيرون نهائياً بطاً ابيض في غرف آكلي اللوتس والنسيان ... ارى بوضوح انني اركض في درب الجنون ، وخلال ايامي في فيينا قطعت شوطاً عظيماً ... تراها موسيقى المدينة واثيرها المسكون بشهقات الماضي ؟ ام تراه حقل القبور الشاسع الذي عليك ان تمر به في طريقك من المطار الى المدينة والذي كان اول ما طالعته عيناي في فيينا ؟ أم تراهما عينا فواز ليلة رحيلي ؟

(لماذا كان وجهك يا فواز آخر وجه أراه في بيروت تلك الليلة وانا في الدرب الى رحلة تخدير اخرى ... وجهك يا فواز رفيق موت اخي السريع ، وموتي البطيء ... لماذا اغمدت سؤالك في صدري : حتام تتابعين هربك وتمارسين انتحارك ؟) ..

ايها الساقي هات كأساً اخرى ، فالعيون الحمر كبرك الدم تعاود زحفها فوق الزجاج امامي ... من مكان ما ينبعث صوت معزوفة اعرفها جيداً ... معزوفة « الدانوب الازرق » ... يحبونها كثيراً في هذا الفندق ويحبون شتراوس ايضاً .... استمع اليها واتذكر انني عرفت الحب اول مرة بينما كانت انغامها تلف جسدي ..

لم يعد في وسعي ان استمع اليها بحياد ، وحتى بعد ان كبرت وتجاوزتها ،

وصرت احب بيتهوفن وباخ وسيبيليوس واحياناً رخمانينوف وتشايكوفسكي : ما زالت تهزني . ما زلت أحس وانا اسمعها ، بالرعشة التي احسها كلما رأيت دبي الصغير الاصفر المحشو بالقش والذي طالما ضممته الى صدري ، لانام ايام كنت طفلة ... معزوفة « الدانوب الازرق » هي عندي حفارة الذكريات .

(تلك الامسية الغابرة من نيسان ١٩٦٧ عدنا من يوم ممتع ضم رفاق العمل ... ركبت مع حازم ليوصلني الى بيتي لكنه اوصلني الى بيته . فرحت . حينما ضمني أول مرة اندفع الدم الى جلدي حتى خشيت ان يرشح من مسامي كلها ... كان ممدداً على الاريكة وقد جلست الى جانبه .. قبلني طويلاً ثم صرخ بي فجأة وكله غيرة : كيف تسمحين لي بتقبيلك ؟ .. لم أرد . اعتبرني غانية فازداد شهوة مغتاظة وزادني عناقاً . كنت يومها نقية كفلة بيضاء ، ولم تكن لدي اية رغبة لاثبات ذلك او عكسه . كانت موسيقى الدانوب الازرق تصدح ، فاغمضت عيني ، وتركت شفتيه ترحلان في مجاهلي ، وحلمت بانني واياه في قارب من الضياء ، نبحر فوق نهر الدانوب الشديد الزرقة ، كسماء اول يوم اشرقت فيه الشمس على الكرة الارضية) .

معزوفة الدانوب الازرق ما يزال صوتها يعلو ... كيف لم يخطر في بالي ان اذهب وارى الدانوب ما دمت هنا في فيينا ؟ فلأذهب الآن ... فلأذهب ولأرَ الدانوب الازرق بعد ان حلمت به طويلاً ، وتعبت من الاحـــلام .

استقل اول تاكسي . عادت امطار الصيف الغاضب تتفجر . يدور التاكسي بي في الشوارع . بعد قليل نصل الى جسر كبير من الاسمنت تمر تحته مياه موحلة وعلى جانبيه ترتفع مداخن المعامل ويقول لي السائق : هذا هو الدانوب يا سيدتي .

اهبط من السيارة وانا اتعثر . تراني ثملة ؟ اتمسك بافريز جسر الدانوب ،

واتأمله غير مصدقة ... اين قارب الضياء ، واين الدانوب الشديد الزرقة كسماء اول يوم اشرقت فيه الشمس على الكرة الارضية ؟... ها هو مرمي امامي ساقية كبيرة من الوحل الصدىء ، مثل نهر من الرماد ... كأنه مملوء برماد الحب والرجل والوطن وحازم ...

نهر « الدانوب الازرق » ! النهر الرمادي الكامد ، تهب منه روائح غير مستحبة ، وتجوبه قوارب تجارية محملة بالحديد والخيبات والسواعد المتعبة ، وها هي مياه المعامل ونفاياتها تصب فيه فتحيله في بعض المواضع بنياً اسود مثل دم مخثر ... نهر النزف العتيق ، نهر رماد الاوهام !... واغرق في حزن نقي لم اعرفه منذ عصور . لانها تمطر ، لن يلحظ سائق التاكسي انني ابكي ولكن يبدو انه يلحظ خيبتي . يسألني بانكليزية مكسرة ضاحكاً : هل كنت تظننيه ازرق !.. جميع السياح الذين آتي بهم الى هنا يشعرون بالخيبة لأن الدانوب رمادي وليس ازرق ... ولانه مجرد نهر عادي كبقية الانهار ... اعود الى السيارة التي ما زال محركها دائراً ، وبينما هو يتحرك بها باتجاه الفندق ارد عليه بالعربية : لا اعتقد ان أحداً حزين من اجل نهركم .. كل منا حزين من اجل (دانوبه) الذي كان يظنه ازرق الضياء واكتشف انه نهر من رماد كهذا النهر ... اسمع يا سائقي العزيز ، لا تظن انني ثملة لمجرد انني شربت ملء زجاجة من ماء النار ... لا ... اننا في الحقيقة نقف بحزن امام نهركم لأننا نرى عبره انهار أعماقنا التي جفت والتي استحالت دماً مخثراً ... وفي مياهه الرمادية المطفأة نرى منفضة سجائر عمرنا المليئة برماد ايامنا وأوهامنا ... اننا لا نعتب على كذبة مواطنك شتراوس ... لا ... اننا نعتب على الحياة واكاذيبها الكبيرة ... فأحلامنا الزرقاء كبحر بكر ، واحلامنا الوردية كبشرة طفل ولد للتو ، كلها كلها تحالفت عليها قوى الشر البشرية والوجودية ... وما لم يفسده الموت المتربص بنا والغدر في الولادة والموت ، أفسده الغدر في طبيعة من حولنا ... اسمع يا سائق التاكسي ... لا تظن انني ثملة فأنا لم اشرب اكثر من زجاجة ويسكي ، ولكنني اريد ان اقول لك

ان بلادي قطيع من الجلادين الاذكياء وقطيع من المواشي الاغبياء امثالي ... عبث ... عبث ... عبث .. باطل الاباطيل كل شيء باطل .. حياتنا في بلادي هباء ضائع ما داموا يتآمرون عليها ... وحتّى موتنا هناك هباء ضائع ... الحياة ، كل حياة ، اكذوبة ، الحياة السعيدة اكذوبة كبيرة ، والتعيسة اكذوبة صغيرة ، لكنها كلها اكذوبة نرغم على اداء دورنا فيها ما دمنا لا نخير في اي عصر نولد وفي اي جسد وما دام لا يد لنا في توقيت موتنا ... ألست من رأيي يا عزيزي السائق ؟ حسناً : ألا ترى معي ان الموت يطاردنا، الزمن يسطو على اشيائنا الجميلة ؟. سخرية الوجود تلاحقنا بضحكاتها ، والجوع الى الحب يسوطنا في ركض بلا نهاية .. لقد حاولت يا صديقي السائق – اذ وعيت ان كل دانوب احببته لم يكن ازرق – ، ان اهرب من الالم والخوف والحب لأحيا ... وها انذا حزينة ، مرمية في تاكسيك تدور بي في شوارع ماطرة غريبة ، وانت حتماً تظنني ثملة لمجرد انني اهذي بصوت عال واعجز عن السكوت ... واشعر بأنك لا توافقني على آرائي لانك صامت لا ترد ، ولن يدهشني أن تتوقف يا عزيزي سائق التاكسي لترمي بي وبحنجرتي المسكونة بالشوك الى احدى برك الوحل ... لاحظت انه لا توجد برك وحل في شوارعك وانت بالتالي لا تستطيع ان ترمي بي في بركة وحل. انفجر ضاحكة لذلك الخلاص الفريد. اجل ! ها انا يا صاحبي يا سائق التاكسي قد هربت من الوطن لانجو من عذاباته ولاعيش بطلة وادعة في سكينة النسيان الابيض ولاعرف السعادة ... ولكن يبدو انه لا سعادة خارج اطار الوطن والآخرين ... لا سعادة في المطلق ، الا عبر لحظات التخدير التي يعقبها عذاب مروع ...

(تناولت قرص السكر وعليه قطرة من المخدر المدهش ال.اس. دي . بدأت اطير في سماء ملونة بالنجوم والفرح ... كانت الوجوه تتدلى كالمصابيح الجميلة ، وكنت أقطفها فتشكرني لاني تفضلت بأخذها ... لم أكن بالضبط أطير ، ولكن كانت هناك موسيقى في الجو تأتيني

كريح من قوس قزح ، وترفعي في اضواء الفضاء . ثم نبتت لي أجنحة من نور ، ثم نادتني الشمس فاتجهت اليها في طيران لامتناه وقد ركبت فوق نسر له وجه حازم ، كان يمضي بي في دانوب شديد الزرقة ممتد كجسر من الارض الى الشمس . لكنني لما استيقظت كنت في حال من الاعياء لا حد له ... كنت مريضة منهكة مستنفدة ، وقد لاحظت أن جورجي قد قيدني الى أحد المقاعد بحبل لفه حولي ... وصرخت أسأل عن السبب ولم يرد ، ثم خبرتني أخته انني بعد أن تناولت ال.اس.دي وبدأ مفعوله يسري ، خلعت ثيابي وركضت الى النافذة لاقفز منها مؤكدة اني سأطير الى الشمس راكبة نسراً له وجه رجل ... وانني كنت أقاوم بوحشية وضراوة كل من يحاول ان يحول بيني وبين « الطيران » من النافذة ، ولم تكن هنالك وسيلة لمنعي من السقوط الا بشد وثاقي ... وبعد أن فكوا وثاقي علمت انني ظللت هكذا اثنتي عشرة ساعة ، وبقيت بعدها ثلاثة ايام مثل طير أحرق الجليد ريشه وجناحيه) ...

لا يا صديقي سائق التاكسي ، صحيح انني ثملة ولكن شفاء الروح عبر تخدير الحواس مستحيل فيما يبدو ...

لماذا أوقفت السيارة ؟

هل أنت غاضب ؟

ما هذا البناء الذي نقف أمامه ؟..

لماذا لا ترد يا صديقي سائق التاكسي؟...

هل أنت حزين من أجل قصتي ؟ هل أنت ميت ؟.

امد يدي لأهزه ، لأتأكد من انه لم يمت فجأة بالسكتة القلبية أو السكتة الحزنية . تصطدم يدي بالزجاج ، بزجاج بارد ، وألحظ للمرة الاولى وجود لوح من الزجاج يفصل بين مقصورة سائق التاكسي والمقعد المخصص للركاب خلفه . اذن كان بيننا الزجاج . اذن لم يسمعني . أتحسس الزجاج بأسى . كيفما تحركت هنالك لوح من الزجاج ينتصب بيني وبين الاشياء ...

(ذات مرة كان جورجي يقبلني وانا مغمضة العينين . لا أدري لماذا أحسست بالبرودة تسري في عروقي ، كما لو كنت ملصقة الوجه والشفتين فوق لوح من الزجاج البارد ... خيل الي أن جورجي وجميع الرجال يقبلونني عبر لوح من الزجاج البارد وكل منا يقف في جهة منه ... فتحت عيني ولم أر الحاجز الزجاجي ورغم ذلك كنت واثقة من وجوده) ...

سائق التاكسي يصرخ بي : ٢٠٠ شلن من فضلك .

ادفع . أسارع الى داخل الفندق وقد غسلني مطر الصيف الغاضب ... الموظف الذي فتح لي الباب شاهدته اثنين . كومضة برق ادرك بسرعة أنني ثملة ... جورجي . يجب ان أوقظ جورجي .

أركض نحو المصعد . يلحق بي موظف الاستقبال . رسالة لي . غير ممكن ، فأنا لا أعرف أحداً هنا ولا أحد يعرف انني هنا ... رسالة من جورجي ؟ لماذا يكتب لي جورجي رسالة ؟... اركض الى غرفتي وأنا أقرأ فيها الكلمات القليلة :

« سيدتي ... لانني أحببتك حقاً رضيت أن أكون لك حقنة مورفين مخدرة ، واذناً تنصت ...

صراخك وجنونك أمام الناس في الشوارع والمتاحف احتضنته .

حزنك الذي لا حدود له بذلت كل جهدي لاكون نشافة تمتصه ...

لكنني بعد ما رويته لي ليلة البارحة صرت قانعاً بأن حل مأساتك لا يكمن في التخدير ...

لست قطة شارع عادية رغم كل جهودك في أن تصبحي كذلك ... واجهي ماضيك من جديد ... وابحثي لنفسك عن موت آخر ... وداعاً .. »...

اذن ذهب جورجي .

لا يهم . ما الفرق ؟. أستطيع ببساطة استبدال ابرة مورفين بأخرى ... يقول انه ذهب بسبب ما رويته البارحة له .. البارحة .. ماذا رويت له البارحة ؟ أجل .. رويت له نكتة ... هل يمكن أن يكون قد ذهب لاجل

نكتة ؟ أذكر بوضوح ما حدث ، وما رويته له منذ ساعات ...

كنا نشرب الخمرة في ذلك المطعم « بجرينزنك » . حي الكتاب والفنانين والمجانين ... وكنت غارقة في صدره تل النسيان : أرافق الموسيقى والمغنين بالالمانية التي لا أعرفها مثل بقية الحضور الذين استفاض بهم الطرب حتى خرج بعضهم الى المسرح يرافق الرقص الشعبي النمساوي ... وكان في بعض مقاطعه يشبه الدبكة اللبنانية ...

بعد قليل أسكتونا وقالوا ان شاباً سوف يعزف على آلة نمساوية عتيقة جداً . وجاءوا بالآلة واذا بها « القانون » الدمشقي الشرقي العربي العتيق .. وبدأ الشاب بالعزف ، ونبت وطني في قلبي فجأة ممزقاً كل ستائر النسيان ... وتصاعدت في دهاليز الذاكرة أبخرة الماضي لتتكاثف صوراً ووجوهاً وأصواتاً ...

وركضت الى مدخل المقهى وجلست على الرصيف . لحق بي جورجي ، ووجدتني أروي له نكتة ...

(باريس — ١٤ تموز ١٩٦٧ — العيد الوطني ، وباريس مجنونة بالفرح والجماهير التي تحتفل بذكرى الثورة وتهديم الباستيل ... لا شيء يمزق القلب اكثر من فرد قادم من وطن مهزوم ووجد نفسه فجأة في مدينة يحتفل قومها بنصرهم وامجادهم .. خصوصاً اذا كان ذلك الفرد المهزوم قد خرج للتو من عيادة طبيب ...

وكنت قد غادرت للتو عيادة الطبيب بعد ان تخلصت من طفل العاشر من حزيران في احشائي ... كنت ما ازال انزف دماً حينما غادرت العيادة ، فقد أمر الطبيب باجرائها ذلك اليوم بالذات ، لان باريس كلها في اجازة ، وحتى المرض في اجازة ، ونستطيع الانتهاء من الامر بسرعة تامة ... وربما لانه كان بحاجة الى السوار الماسي الذي أعطيته اياه مقابل العملية .. عبثاً حاولت ايجاد تاكسي ... واضطررت للسير من العيادة الى شارع « ريشيلليو » حيث كنت أقيم . وصلت مهدمة وقد ذهب عني تأثير البنج .

بين اعمدة « الكوميدي فرانسيز » المجاور لدار الشابات (لانوف)

حيث كنت أقيم ، شاهدت شبح حازم . ظننتني أهذي اثر عملية الاجهاض ، وساعة السير التي أعقبتها ، والجماهير المحتفلة تتقاذفني ، والشباب السكارى يحاولون قسري على الرقص معهم ... لو يدرون ... أجل ! شاهدت « حازم » ولم أكن واهمة . قال لي بلهجة جافة ، وبسرعة قاتل مأجور يريد أن يغمد خنجره سراً ويهرب : لم اجدك في دار الشابات وتركت لك رسالة هناك .

— ماذا تريد مني ؟

— لا شيء أبداً .. بصراحة ، أنا هنا في شهر عسل . تزوجت من فتاة محترمة .

— ماذا تريد مني ؟

— أريد الا تسببي لي أية فضائح . فقد خفت ان تعرفي من السفارة انني هنا ، وتحصلي منها على عنواني .

— ماذا تريد مني ؟

— اريد أن أقول لك ان تبتعدي عن طريقي تماماً ، وألا تحاولي الاحتكاك بي حتى بحجة العمل ، لانك صرت غانية .. سيئة السمعة .

— لنفترض انني صرت غانية ، لماذا يضايقك ذلك أنت بالذات ؟ كنت أظن أن ذلك يقربني منك ...

— انا رجل محترم تزوج من سيدة محترمة .

كلمة « محترم » لا أدري لماذا بدت لي نكتة رائعة . محترم ...

— يا سيدي المحترم ... حولت حنجرتي الى مومس ، وشاركت في تحويل مؤسسات الاعلام في بلادي الى بيوتات للعهر ... يا سيدي المحترم المحترم .

— راقبي كلماتك ...

— انكم لا ترون في « العهر » فظاعته الا حينما يتجسد في جسد امرأة ... اما عهركم في السياسة والاخلاق والممارسات كلها فانكم تمرون به دون ان يرف لكم جفن يا سيدي المحترم ..

— راقبي كلماتك ...

– يغلي دمكم لمرأى امرأة توسخ جسدها وذاتها كي تصير مثلكم وتنتمي اليكم ، تجنّون امام جسدها المستباح ، ولا تحسّون بشيء امام جسد الوطن المستباح ... وطني غانية التاريخ ...

– راقبي كلماتك ...

عبارة « راقبي كلماتك » أحسستها نكتة . نكتة رائعة . (المراقبة !) . هذا حلهم الموجود لتغطية كل الحقائق .

صرخ بي : في أي فراش كنت ؟ .. اذهبي الى المرآة وانظري كيف تبدين ...

قلت له : كنت في فراش حديدي لطبيب وقد قيّد كلاً من ساقيّ الى مفصل متحرك متفرع عن الفراش ، وكان الطبيب رائعاً ، فقد فقدت وعيي بين ذراعيه وحينما استيقظت وجدت في طشت بين ساقي الفراش الحديديتين كمية من الدم والانسجة هي طفلك وطفل ليلة الهزيمة في حزيران ...

وانفجرت اضحك . ولا ادري لماذا لم تعجبه النكتة فيما يبدو لانه لم يضحك وانما غطى وجهه بيده وهرب من أمامي وابتلعته جموع المحتفلين بعيد نصر فرنسا ...) .

كانت هذه هي النكتة التي رويتها لجورجي .

ما الذي أحزنه فيها ؟ غريب طبع الرجال . حس النكتة لديهم قاصر . هجرني لاجل نكتة . لا يهم . فلأهبط الى صالة الفندق ولأبتلع مزيداً من الويسكي ، ولاختر رجلاً اعبثه في ابرة مورفين جديدة .

أنا في الصالة ... في المقعد نفسه . أمام الجدار الزجاجي نفسه . وسماء عاصفة الصيف المتلبدة ما زالت تحتل نصف المشهد . يركض في عروقي النمل بدلاً من الدم ... وجورجي قد رحل – لا فرق – الفارق الوحيد هو ان شاباً وسيماً قد احتل المقعد تجاهي ... وبيده صحيفة غرق بين سطورها . قررت بخبرة ذواق الخمور : هذا الرجل يستطيع تخديري لليلة على الاقل ..

أعتدل في جلستي . أنزع عن عيني نظارتي كما أفعل دائماً حينما استعد

للصيد ، لكنني أعيدهما بسرعة وقد لمحت في الصفحة الاولى لصحيفته صورة أعرفها ... صورة فواز .

(أم تراني دخلت نهائياً أرض الجنون ولم أعد أتأرجح على الخط الفاصل الواهي بين أرضه والواقع ؟) ...

أجل ! انها دونما شك صورة فواز . تراني أحلم ؟ لا ... ها أنا أقرأ بوضوح اسم الجريدة . « الهيرالد تريبيون » . واسم فواز أيضاً أقرأه بوضوح في العنوان . انتزع الجريدة من صاحبها دون استئذان وأركض الى غرفتي . لا أدري ان كان هناك من يلحق بي . اقفل بابها من الداخل واقرأ الخبر : مصرع زعيم فدائي في بيروت بعد انفجار قنبلة في درج مكتبه ، ثبتت بحيث تنفجر تلقائياً متى فتح الدرج .

وصورة لفواز وقد مزقه الانفجار .

لاحظت ان الانفجار قذف بيده بعيداً عن جسده .

يده التي كان يرسم بها ...

بقيت يدي ...

أتأملهـــا ...

في الطائرة العائدة من فيينا الى بيروت ، أول طائرة ، كنت .

والى جانبي ، على زجاج النافذة الملاصقة لمقعدي لم تكن برك العيون الحمر الدامية الغاضبة تنفتح بضراوة ...

لم تكن هناك ...

كانت هناك سماء زرقاء وصافية تمتد بلا نهاية ... مضيئة وزرقاء كالدانوب الازرق العتيق ...

الساعة ١٢,٢٠ يوم ١٤ آب ١٩٧٢ .

ارملة الفرح

هذه المرة كان الحلم مروعاً .

ام تراه لم يكن حلماً ؟

لم اعد ادري .

كل ما ادريه هو انني استيقظت للتو من نومي ، ارتجف كأغصان شجرة احتلها الجراد للتو .. وانتحب باسمك يا هاني .. مذعورة .

كجريح عاجز عن الحركة يأكل النمل جراحه ... وانتحب بإسمك يا هاني ...

وفراشي الشاسع احسه مرعباً وبارداً مثل حقل انتشرت فيه جثث القتلى بعد ان كان مسرحاً لمعركة ، والقمر الصقيعي البياض يغمر الاجساد المطعونة بلون شبحي رمادي ... كلوني وانا مرمية هكذا ارتعد والفجر الرمادي يحتل العالم ، وانتحب باسمك يا هاني ...

ولكن ، لم انا خائفة هكذا ؟ لم أنا حزينة هكذا ؟

كان الامر حلماً . مجرد حلم ... ككل احلامي في الاربعين يوماً الماضية . لا يمكن لما حدث ان يكون حقيقة ...

ولكن ما الحقيقة ؟... ما الحلم ؟... لم اعد ادري ... كل ما ادريه هو انني كنت فتاة لا تحلم حتى عرفتك ...

عشت ثلاثين عاماً لم احلم خلالها مرة واحدة .

كنت اقرأ عن الاحلام . عن تفسير الاحلام . كنت اسمع الناس يتحدثون عن احلامهم . يتفاءلون بها . يتشاءمون . لكنني لم احلم مرة واحدة . طوال عمري لا اذكر انني حلمت مرة واحدة .

وربما كان عجزي عن الحلم هو ما دفع بي الى قراءة كل ما له علاقة بالاحلام ... وصرت اعرف التفسيرات الفرويدية للاحلام ، والبرغسونية ، والبلوشية الماركسية ، بل انني قرأت كل ما كتبه شوبنهور وآرتيج وتيسيه وشرنر وستيفنسون عن الاحلام ... ولكن ما جدوى ذلك كله وانا لا احلم ؟ ما جدوى ان انام كل ليلة في فراش تغطيه كتب تفسير الاحلام والنظريات عن سبب الحلم ومدلوله وفيزيولوجيته وأنا لا احلم ؟ لقد غيرت (ماركة) فراشي مرات عديدة ، وارتفاع وسادتي ... وظللت لا احلم .

اجل . كنت لا احلم بالمعنى الذي اسمع الناس يتحدثون به عن الحلم ... ومع ذلك كانت حياتي كلها مثل حلم واحد طويل صامت وممل ومكرر ... مثل مسيرة قطار على سكة حددت له سلفاً وكل ما عليه هو ان يطيع الدرب المرسومة له . كان كل ما فيها يبدو شاحباً ومهزوزاً وغير حقيقي . وكان يخيل الي انني اعيش حياتي كلها للمرة الثانية وان كل ما يدور من اقوال وافعال سبق له ان حدث لي من قبل . قصرنا الكبير ... زوارنا القادمون دوماً في سيارات فخمة ينحني سائقوها وهم يفتحون لهم الباب ...

صديقات امي في شعورهن المستعارة يلعبن البريدج ويذهبن الى عروض الازياء . الاواني الفضية التي تملأ خزائن كالتوابيت تلمع كل شهر وتعاد الى موضعها ... الثرثرة ... والشاي ... ودانتيل طبق (الجاتوه) ... كل شيء كان يبدو كحلم ... وانا كنت منومة منذ ولدت ، والا لما استطعت ان ارضى بممارسة دوري المرسوم لي ، وللمرة الثانية منذ طفولتي وأنا افعل كل ما هو مفروض ان افعله دونما نقاش كالمنومة ... ويوم تخرجت من الجامعة بنجاح ، تم تعليق شهادتي على الجدار الرخامي الى جانب الصور الزيتية لاجدادي الميتين وبقية أفراد الاسرة ووضعت شهادتي في اطار مماثل ... وظللت لا أحلم .. وظللت مستسلمة لكل ما حولي ، دوماً اقول ما يفترض ان اقوله ، وافعل ما ينتظر مني ان أفعله ، ودوماً اشعر ان كل ذلك انما

يحدث للمرة الثانية . وكل من حولي راض عني ، اسمع تصفيقاً مبهم المصدر كيفما تحركت ... تصفيق رضى عالمي الصغير ... وظللت لا احلم ...

ولم يكن هناك ما يهزني حقاً . ما يسعدني بعنف او يتعسني بعنف . يوم قيل لي ان امي مريضة بالسرطان سافرت معها الى لندن ، وكنت ارافقها كل يومين الى ذلك المستشفى الكبير لحضور جلسات الكي بالاشعة (او شيء آخر لا ادريه) ، ولم اكن حزينة ولا فرحة ولكنني كنت ارافقها بالتاكسي من الفندق الى المستشفى ولم يحدث مرة ان غادرت طريق سير التاكسي لاكتشف العالم حولي ... كان كل ما حولي منظماً – او يبدو كذلك – وقد اتخذت المكان المعدّ لي فيه دونما صراع . ورضيت باطاري بلا مناقشة ... ولكنني لم اكن احلم ...

حتى التقيت بك يا هاني . **(اول مرة رأيتك لم يكن فيك ما يميزك عن سواك ، ولا بد لي من الاعتراف بذلك . كنت مجرد طبيب ناجح آخر من عشرات الاطباء الذين تعاقبوا على علاج امي – المصابة بالسرطان – والتي لا علاج لها ... بلى ... كان فيك ما شدني منذ اللحظة الاولى ... انها تلك النظرة في عينيك ... نظرة يمتزج فيها الجنون بالدمع .. نظرة نفاذة مليئة بالفضول وبالخيبة .. بالاستجداء وبالاكتفاء ... وشعرك ايضاً .. كان مجنوناً مبعثراً مثل شعر فنان لا طبيب .. ونظرتك أيضاً كانت نظرة فنان يحمل الازميل لا نظرة طبيب يحمل المشرط . قلت ذلك لاخي سلمان الذي حدثني عنك بحرارة . قال انك فعلاً كما حدست . وانك طبيب غريب الاطوار ، فانت تحاول انقاذ مرضاك من الموت بمبضعك ، ومتى فشلت ، ومات احد مرضاك ، قضيت الليالي التالية لموته وانت تنحت تمثالاً له وتبكيه ولا يهدأ حزنك وبكاؤك حتى تجسده في حجر يكاد يتحرك وينطق ... ومرضاك الذين كانوا يتلاشون بين يديك في غرفة العمليات ، كنت عبثاً تعيد اليهم الحياة عبر الصخور في الحقل المحيط بدارك ... وخبرني اخي ايضاً ان ذلك الحقل مكان عجيب ... وكل الذين خرجت**

جنازاتهم من مستشفاك ، بعثوا في تماثيل في حقلك ، وانك بارع في الطب براعتك في النحت ... وان المرضى يلاحقونك رغم غرابة اطوارك ... وان اول ما تشترطه على كل مريض هو السماح لك بأخذ قناع جبسي عن وجهه – في حال وفاته – كي تتم صب التمثال ، ثم تسكب فيه – من الذاكرة – تعبيراً ما ، كان يدهش اهل الفقيد مدى شبهه بالمرحوم . وكنت ترفض السماح بكلمة (المرحوم) . كنت تعتقد ان كل مريض متوف تسكبه في تمثال يكف بطريقة ما عن ان يكون ميتاً) ...

ولم يدهشني ان يدافع اخي بحزارة عنك هكذا ... هو ايضاً كان الموت يثير جنونه ...

وسرطان الثدي الذي أصيبت به امي منذ اعوام طويلة غيرّ مجرى حياته . اتجه الى دراسة الطب . واختص بحقل السرطان ... وهو مقيم منذ اعوام في احد مستشفيات الغرب يتابع حربه ضد الموت في المختبرات .. وكان فراق شقيقي يتعس امي الثرية التي تستطيع عادة ان تشتري كل ما تشاء وتسمره في غرفتها ... شيء واحد لم تستطع امي شراءه . انه ابي الشاعر ... تزوج منها وعاش معها شهراً حملت خلاله بأخي ثم هرب منها عشرة أعوام ... ولما عاد ، عاش معها اسبوعاً ثم هرب منها الى الابد منتحراً ... ومع ذلك لما جئت انا ، اسمتني امي نينار ، الاسم الذي كان يريده لي ... هذه المرأة الرخامية التي استطاعت ان تكون رجل اعمال ناجحاً ، هذه المرأة الصلبة التي ضاعفت ثروتها عشرات المرات لا ريب وانها ضعفت ذات ليلة حين ذهب ابي .. بكت بين اغطيتها الحريرية ووسائدها الريشية ، ولا ريب انها حلمت به وجمدت في حلقها شهقات كوابيس الفراق والا لما اسمتني نينار تنفيذاً لمشيئته .. ولكنني منذ عرفتها لم المح في وجهها اي اثر لدمعة او لكابوس او حلم ... وقد جهـــدت هي لكي اكبر على صورتها ومثالها ... وجهدت لكي تمحو من اعصابي وتمسح من دماغي كل جنون يمكـــن ان اكون قد ورثته عن ابي الشاعر ... وتبدل الدماء الغجرية في عروقي الى دم

ازرق يليق بسيدة مجتمع مقبلة لا تحلم وتتمتع بكل مواهب الآلات الحاسبة ... وتتصدر موائد لجان حفلات انتخاب ملكات الجمال . وكل ذلك كان ممكناً لو لم تطل يا هاني في حياتنا ... وتجيء لتخدر امي التي لا شفاء لها ، واذا بك ترعى كل جراثيم الرفض التي خلفها ابي الشاعر الثائر في مسامي ... واذا بها تنمو... وها انا امرأة تحلم وتؤرقها الكوابيس... اواه يا هاني... كيف استطعت ان تحولني من شيء هادىء وهامد ، ومستقر كاستسلام مومياء لتابوتها ، الى شريان مقطوع ينبض نزفه على هامش صفحة عمرك ؟..

باب غرفتي يقرع . صوت خادمتي « تفاحة » الاليف يناديني . تدخل . ترفع الستائر . يهجم الضوء على وجهي دبابيس في العيون ... انها التاسعة اذن ... وها هي توقظني كما طلبت اليها ... لم اكن ادري ان ذلك الكابوس المروع سيوقظني وانني سأعجز بعده عن العودة الى النوم ...

شعرت بالرغبة في الحديث عن كابوسي الى شخص ما ... الى « تفاحة » مثلاً وان انتحب قليلاً ... ولكنني حين فتحت فمي سمعتني آمرها ان تعدّ حمامي وبلهجة قاسية ...

ها أنا في ثيابي السود مثل ارملة الفرح ... اليوم ينقضي اربعون يوماً على موت امي ، ولا أدري لماذا يفترض ان تقام طقوس خاصة بهذه المناسبة . لماذا لا تقام هذه الطقوس في اليوم التاسع والثلاثين مثلاً او الواحد والاربعين ؟ لماذا في الاربعين بالذات ؟ وهل لذلك اية علاقة حقيقية بها ؟... هل هو مثلاً عيد هجوم النمل والدود على جثتها ؟ ام ماذا ؟... ثم ما علاقة ذلك بأكوام الطعام التي بدأت تصلنا من احد المطاعم الكبيرة ؟.. وهل توقت ثرثارات العائلة وعجائزها موعد التهام وجبتهن الفاخرة هذه مع موعد التهام الدود والنمل لجثة امي ؟

لا ادري ... وقبل ان اعرفك يا هاني لم تخطر ببالي هذه الاسئلة ... لنقل انني لم احبك ، ولكنك على اية حال زرعت شارات الاستفهام في حياتي ... وها انا ارى كل شيء من جديد ... من جديد ... وحتى خالتي

نعمة الارملة التي كنت اظن انني احبها . اتأملها الآن وهي تدخل القصر يرافقها مقريء اعمى وتذكرني لسبب اجهله بالسمسار الاعرج الذي يؤجر املاك امي ... اكرهها ، واكره منظر المقرئين العميان الذين لا اراهم الا في المآتم . واحسهم في ثيابهم السود وعيونهم المفقوءة مثل الغربان التي تنهش جثث الموتى في شوارع مدينة الطاعون .

ها قد أعد كل شيء .

الاواني الفضية نبشت من توابيتها للمناسبة ، وغرف القصر كلها رتبت والرياش الملونة انتزعت واخفيت . وها هو المقريء بصوته النشاز مثل اسطوانة مهترئة ، وها انا ارملة الفرح وسيدة القصر الجديدة اخرج الى صالة الاستقبال الكبيرة واجلس متصدرة المكان ... تم اعداد ديكور المكان ــ بما فيه أنا ــ وبقي ان يأتي بقية افراد التمثيلية المهزلة ... لا ريب في انني ابدو جامدة وباردة كالجدران الرخامية التي يغطيها بعض السجاد الفاخر ، ونقوش السقف الملونة ، وصور اجدادي المتناثرة على الجدران ، وبعض الحكم العربية المحفورة في خشب الابواب الثمين ، اذ ان خالتي تقول لي بكثير من التأنيب : ابك قليلاً قبل ان يحضر المعزون !..

لماذا ابكي ؟ اشعر بأن الموت متغلغل في عروق هذا البيت منذ كان . لسبب اجهله ، الموت يجلل كل شيء . ولكنني لا استطيع ان ابكي . ما ازال ساقطة تحت سطوة الكابوس ... كان كل ما في حياتي منظماً ، ولم اكن ادري ان كل تلك المؤسسة الهائلة التخطيط ليست سوى ابنية من الملح اكتسحها حلم .. حلم دام اربعين يوماً ثم تحول الى كابوس .. وغداً ربما يذهب الحلم ... ويذهب الكابوس ... ولكن شيئاً لم يبقَ كما كان ... مدينة الملح والوهم سقطت نهائياً ، بعد ان اكتسحها حلم يفوقها كثافة وحدة ... وغداً ... غداً امتلك وحدي هذا القصر وقصور امي كلها ما دام اخي ضائعاً بين مختبرات العالم يصارع الموت كأي دونكيشوت عبقري آخر ، سيفه أنابيب الاختبار وعشرات الحيوانات الصغيرة السجينة .

ولكن ، هل انا خير منه ؟ ألم اهرب من الموت الى دهاليز الحلم ؟

(دهمني الحلم الاول منذ اربعين يوماً ليلة موت امي ... ليلة ٢٥ آب . حلمت بانني اسمع صوت انين ينبعث من غرفتها الملاصقة لغرفتي . ركضت اليها . كان في وجهها شيء جديد يذكر بصفارات السفن الراحلة في الموانىء المعتمة ... همست : طبيب... هاني ... اتصلي بهاني .

وهتفت الى هاني ، وردت زوجته نصف النائمة نصف الغاضبة : هاني في « عاليه » .. لا.لا تلفون هناك . لا يجب ان يزعجه احد هناك .

وركضت الى امي لأسألها ماذا افعل . وجدتها لا تجيب . ووعيت انها لن تجيب الى الابد ، ومع ذلك لا ادري لماذا قررت ان اذهب الى هاني ... لاجل أمي ام لأجلي ؟

واستمر الحلم بوضوح مذهل . كنت في قميص نومي الابيض الطويل . ركضت كما انا الى حديقة قصرنا لاوقظ سائقنا الذي ينام في كوخ صغير .. وصلت الى باب الكوخ . قبل ان اصرخ منادية باسم السائق « ابو عبدو » شاهدت لوحة جعلت الدماء تقفز الى حلقي وتخنقني . شاهدت شبحين غارقين في عناق مذهل . اقتربت منهما بكل هدوء وصمت . كان ضوء القمر يشتعل فوق ذرى الاشجار وترتمي حزم منه فوق الحشائش امام كوخ « ابو عبدو » وتضيء الشعر الطويل المفروش على الارض لامرأة ترتعش كلهب شمعة ... بينما ارتمى رجل فوقها بجسده الهائل كشجرة مباركة ، وصارا مثل موجتين اتحدتا ، يؤديان رقصة شفافة كالاساطير مجنونة كالالم... ظللت واقفة اتأملهما بذهول... صارا موجة واحدة تروح وتجيء بشراسة مثل صرخة متوحدة تفتح في صخر الواقع نفقاً الى عوالم ازلية تلتقي فيها الحقيقة والحلم ... ولم يشعرا بي . راحا في شبه اغماءة هناءة . ارتميا على الحشيش عاريين تماماً فوق ظهريهما ، وبدوا والقمر يغسلهما مثل لوحة تمثل آدم وحواء ليلة « الخطيئة » ... وكان وجه تلك المرأة المتفجرة عطاء وغبطة هو وجه « تفاحة » خادمتي الصغيرة الخجول .

وكان هذا الرجل المستريح اللاهث ـ كمن اخمد للتو رايته فوق جبال الموت ـ هو « ابو عبدو » سائقي الوفي ...

تأملتهما وتأملت حديقة قصري وكأنما أراها للمرة الاولى ... لقد شاهدت حديقتي مضاءة بالمصابيح الملونة في الحفلات الخيرية .. في حفلات عرض الازياء ... في كل انواع المناسبات الاجتماعية حتى حفلات الكشاف وجمعية الرفق بالحيوان ... ولكنني لم اشاهدها قط كما هي الآن ، تفوح منها رائحة التراب والحياة ، وموسيقى داخلية كأنما هي صوت البذرة وهي تنمو تحت التراب وتشقه لتخرج ... وها هي « تفاحة » و «أبو عبدو » لا يزيفان لا الارض ولا واقعهما ... وها انا اقف مذهولة امامهما ، انوء تحت ثلاثين عاماً من وهم الحياة ... تنهال فوق رأسي بطاقات عشرات الحفلات التي رافقت امي اليها والتي تظهر صورها في الصحف والمجلات في اليوم التالي ويسارع ابو عبدو الى شرائها تلبية لاوامر امي ... تلف عنقي مجوهراتي التي طالما ارتديتها مثل تمثال منومة بينما امي تحدث صديقاتها عن ثمنها واسم الدكان الباريسي الذي إبتاعتها منه ... ينزلق في عيني شريط لرجال الدين المترددين دوماً الى بيتنا ، الباسطين علينا رضاهم وبركتهم ... والمزار الذي اعتدت ان امر به مع امي لنصلي بين النساء الباكيات وطالبات الشفعة ، والذي دفعت امي كل نفقات ترميمه وجامعه والرجال الهامين الذين يزوروننا ... والصفقات التي برعت امي في ترتيبها واولئك الرجال الملفوفين بربطات عنق حريرية المجعدي الوجوه الذين يبتلعون الهرمونات والاقراص قبل الطعام وبعد الطعام ويغمرونني بنظرات الشهوة وهم يتجشأون ، ويمسحون شعري ـ مدعين العواطف الابوية ـ بأيد لزجة مرتجفة باردة لها ملمس الضفادع ... ثلاثون عاماً اسمعها تتكسر في رأسي كما لو تحطم فوقه كل الكريستال الموجود في ثريات قصرنا ...

ها هي « تفاحة » تعود الى صدر « ابو عبدو » .. ويستمر الحلم ...

أحلم بأنني اركض هاربة منهما ... اركض الى سيارتي ... اقودها مجنونة الى عاليه ... الى حيث حقل هاني الذي حدثني اخي عنه ... وكنت قد نسيت تماماً لماذا انا ذاهبة اليه ... ربع ساعة تفصل بين « بيروت » و « عاليه » الموشومة في حضن الجبل المشرف على بيروت والبحر ، لكنني احسست وانا اقود سيارتي المكشوفة اليها بانني اقود صاروخاً الى كوكب آخر ... كانت اول مرة ارى فيها الليل العظيم يحكم العالم ، ليل « تفاحة » و « ابو عبدو » . كانت اول مرة اخرج فيها الى ليل الجبال وحدي ، دون ان اكون ذاهبة الى حفلة او خارجة من مأتم ...

اجل ! كان الليل العظيم يحكم الجبال والوديان ، والقمر يضيء كما لم يضيء الا في الاساطير والاحلام ... يضيء كهوفاً ومغاور على جانبي الطريق ، اراها بسرعة التماع الشهب وهي تسقط ، ويخيل الي ان في كل مغارة يدور شيء حار وممتع وسبري ومليء بالحياة لا تعرفه علاقات القصور المغلقة بالقفازات .

واحسست بان الدرب شفت حتى استحالت الى حزمة ضياء تركض تحت عجلات سيارتي ، وان سيارتي مجرد نسمة طائرة ... وان شعري وجسدي امتداد للريح والليل ، وانني اذ اجيء اليك اتحد في طريقي بالتراب والصخور والعناصر ... كانت صورة « تفاحة » و « أبو عبدو » تلاحقني في المنعطفات ، وشهقاتها هي صوت محرك سيارتي .

اخيراً وصلت .

الهدوء يغمر حقلك كأول ليلة بعد انحسار طوفان نوح .

والحلم يستمر رائعاً ...

باب الحقل مفتوح . ادخل .

ادور بين تماثيلك واكاد اصاب بالخوف ...

اتأملها . في وجوهها تتجسد لحظة توهج انسانية مذهلة ، لا نراها الا في وجوه المحتضرين لحظة تعانق الحياة والموت ، وفي وجوه الاطفال لحظة

الولادة ، وعند اول شهقة تنفس يعبّون فيها من الهواء الارضي ...
خيل الي ان تماثيلك تقول شيئاً ما ... تكاد تركض خلفي ...
اركض كالمجنونة بينها وانا ديك ... ها انت ...
وقفت امامي وفي عينيك نظرة كلها ثقة ... كأنك كنت تعرف انني سأجيء اليك يوماً ما ..
اردت ان اقول لك شيئاً عن امي ثم نسيت . يداك داخل شعري . يداك حول عنقي . يداك تتأكدان من انني جئتك بكل جسدي ...
وتفاهمنا بصمت تام لا نراه الا في الاحلام . امسكت بيدي فسرت معك . القمر يرمي ضياءه الشبحي الفاجر وكل شيء صامت ، حتى التصفيق الذي اسمعه عادة كيفما تحركت صامت ... كان الكون كله قد حبس انفاسه وكف عن الثرثرة اللاابجدية ...
دخلنا كوخاً صغيراً مؤلفاً من غرفة واحدة .
لم افاجأ بما فيها كأنني كنت اعرف ذلك منذ عصور .
كانت صورة عن غرفة العمليات الطبية ، او عيادة طبيب نسائي .
يتوسطها سرير (الحب) ، لكنه السرير الحديدي الخاص بالعمليات ! .. مغطى بشرشف ابيض يذكر بالكفن .
افهم وحدي ان علي ان اتمدد فوقه . تناولني المئزر الابيض الذي يرتديه المرضى قبل ان تجري العمليات لهم . استبدل قميص نومي بمئزر العمليات الخشن .
افهم ايضاً ان علي ان اتمدد فوق السرير . رائعة هي الاحلام ... كل ما فيهـــا يدور بصمت ، كل شيء واضح وبديهي وجسر التفاهم ممدود بين انسانين دون حاجة الى الحوار .
اراك ترتدي القميص الابيض الخاص بالاطباء ، وتغطي وجهك بالقناع الابيض ويديك بالقفازات المطاطية وتقترب مني وبيدك مشرط العمليات الحاد ...

تكشف عني ردائي عن موضع القلب ، وتحوم بالسكين هناك .
لا اخاف .

افهمك رغم الصمت . بل افهمك عبر الصمت كأننا اكتشفنا لغة تخصنا وحدنا .

ها هما عيناك مخيفتان في ضوء القمر الساقط عبر الكوة ... عيناك جمرتان من الغضب الهائل ... غضب على قوى لا تملك لها دفعاً ... كأنك لا تراني يا حبيبي .. كأني مجرد ساحة معركة بينك وبين قوى غيبية تصارعها ...

ولكن لا مشرطك ولا معطفك الابيض ولا ازميلك تملك شيئاً لك ... اقترب ... اخلع ذلك كله وتعال نبحث عن حل آخر عتيق عتق الانسان ..

اجل ! هكذا ... تعال اليّ عارياً من كل شيء ، ومن البارحة والغد ، مغسول الذاكرة والاحقاد ، ولنعبر معاً عتبة الهواجس والكوابيس ... لماذا ترتجف يا حبيبي مثل عصفور طار الف عام وسط الثلوج والجليد ؟

... تعال الي ... اخلع قفازيك ... أحسك وانت ترتديها مثل مجرم يتحفز للسرقة ... ليس هنالك ما تسرقه ، انني امنحك مجاهلي ورعبي وخدري ... ازرع الاحلام في موتي الطويل الممتد على ثلاثين عاماً من تصفيق الناس ... أجل هكذا ... اغرس راياتك ... اجل هكذا ... فلتتجمع الحياة في محرق اللحظة ، ولنعش الف عام في ثانية من الكثافة المذهلة ... كم هو رائع ... اوه ... كم ذلك رائع !

وقبل ان امضي وينتهي الحلم ، اعطيتني مفتاحاً صغيراً وقلت لي إنه مفتاح باب الكوخ ... وطلبت مني ان احضر ثانية ...

واستيقظت ليلتها من نومي وانا ارتعد ... وذهلت لحرارة الحلم الذي ما يزال يسري في عروقي ... الحلم ؟ ... لا ادري رغم انني وجدت في حلقة مفاتيحي الكثيرة المفاتيح ، مفتاحاً صغيراً كالذي شاهدته في الحلم الا انني لم اكن استطيع الجزم اين ومتى امتلكته ... انه ولا ريب

واحد من مفاتيح الغرف الكثيرة المقفلة في هذا القصر ربما لم انتبه اليه من قبل ...

كانت هنالك ايد تقرع بابي ... صراخ ... خرجت . قالوا انهم وجدوا امي ميتة . سارعت اليها ، وحين لمستها وجدتها باردة باردة وقد سرت فيها الزرقة . تأكدت من انها ماتت قبل ساعات بينما كنت احلم) .

وحينما جئت بعد ان علمت بالنبأ ، لم تقل لي شيئاً يؤكد ان ذلك الحلم المذهل كان حقيقة ... جئت لتقول لي بكل بساطة انك ستبدأ العمل في تمثال امي ... ولكنني حينما شاهدتك احسستك كحد محراث يشق تربة ايامي التي هجرها المطر والاطفال والعصافير ... يحفر دربه تحت جلد عمري المسكون بالموت والتصفيق ...

وحينما صافحتني ، احسست عظامي المتعبة الحزينة كرفش حفار قبور عجوز عادت تلتهب ...

وحينما سألتك عن زوجتك بدت في عينيك دهشة حقيقية كأنك لم تسمع من قبل بأنك متزوج !...

وانقضى النهار كما هو مفروض ان ينقضي . بكاء وعويل وعجائز كالغربان السود ومقرىء مفقوء العين وسيدات جمعيات وغيرها من الفظاعات . ولأول مرة بدا لي كل شيء بلا معنى . ولأول مرة شعرت بأن الدور المرسوم لي يحبس انفاسي ، وبأن الخيوط التي كانت تحركني انا الدمية بدأت تتقطع ...

(وانتظرت الليل بفارغ الصبر كي احلم من جديد انا المرأة التي لا تحلم ... وكعادتي حاولت ان اصلي قبل النوم لكنني عجزت عن الصلاة . منذ عرفت الحلم فقدت قدرتي على الصلاة ... ولم اعد اجرؤ على الدخول الى المزار رغم انني حاولت ذلك مرات عديدة .

اخيراً النوم العظيم ... وعشت الحلم نفسه ... الكوخ نفسه ... الطقوس نفسها ... ثوب الطبيب ... فراش العمليات ... اتعرى استعداداً للعملية ... وكما في حلم الليلة السابقة ، نتابع الزحف فوق تل اللذة حتى الوصول

الى قمته ...

وفي الصباح استيقظ سعيدة) ...

كان رائعاً ان احلم ... ان احلم بعد ان قضيت ثلاثين عاماً اسمع عن الاحلام وعن تفسيرها واقرأ عنها ولا احلم ... وكررت محاولة الدخول الى المزار والصلاة تكفيراً عن حلمي ، لكنني كنت احس ان العتبة صارت مكهربة تحت اقدامي .

وتكرر الحلم كل ليلة ... ليلة بعد ليلة بعد ليلة ...

(كنت أستيقظ اثر كل حلم مبهورة سعيدة ... واذكر انني مرة هرولت الى سيارتي فور يقظتي ، وتحسست محركها وذهلت لانه حار ثم قررت ان ذلك يعود الى شمس الصيف المحرقة التي يظل اثرها في المحركات طوال الليل ، ورغم ان بقية سياراتنا كانت باردة لكنني اقتنعت ان سيارتي لسبب ما تحافظ على الحرارة دون غيرها .

كنت سعيدة بالحلم . كان وحده يكفيني قحط ايامي ... ماذا حدث ؟ ولماذا صار الحلم كابوساً ؟)

خالتي نعمة تنكزني وتهمس : ما بك تصافحين المعزين كالمنومة ؟ هذه زوجة رئيس الوزراء السابق (...) وربما اللاحق ، يجب ان تودعيها الى الباب ...

انهض لأودعها بحماس لانني اشعر بحاجة لتحريك ساقي ... اودعها . تلحق بي خالتي وهي تحمل صحف اليوم وتقول لي غاضبة : انظري . كل الصحف نشرت عن (اربعين) املك في اطار اسود خاص الا جريدة (هاهاهاها) نشرت الخبر في عمود الوفيات العادي الذي يحمل اخبار موت كل الناس . عيب . يجب ان تعاتبيهم .

امسك بالصحيفة واتظاهر بالاهتمام كي تكف خالتي عن محاضرتها . تجيء « تفاحة » ووجهها متورد وللمرة الاولى تطلب مني شيئاً بكل جرأة : ارجوك يا سيدتي ... اقرأي لي اسماء القتلى في ضيعتي فقد يكون أبي بينهم .

انا من « عيتا الشعب » واليهود يضربوننا باستمرار ...
تصرخ بها خالتي : يا قليلة الادب . الست مشغولة
بعد قليل اتسلل الى المطبخ والجريدة معي .
تقول تفاحة انها من قرية « عيتا الشعب » في الجنوب على الحدود الملاصقة لاسرائيل، وانها دوماً تسترق السمع في مذياع غرفتي فيما هي ترتبها لانها تخاف من اليهود على اهلها هناك وتريد الاطمئنان على اخبارهم . وانها سمعت اليوم ان هجوماً وقع وقتلى كثيرين سقطوا ...
امسكت بالجريدة لاقرأ لها الخبر ... للمرة الاولى توهجت الحروف في عيني ... ربما للمرة الاولى اقرأ شيئاً غير اخباري في صفحات المجتمع .
ضبطتني خالتي في ذلك الوضع الحميم مع الخادمة .
قالت لي انه لا يجوز رفع الكلفة مع تلك الطبقة من البشر .
(تذكرت تفاحة وابو عبدو ليلة الحديقة . تخيلت أولادهما يملأون هذا القصر ويحتلون غرفه هم وعشيرتهم ويرمون من النوافذ بالأواني الفضية اللامجدية وباروكات شعر امي وثيابي ويلعبون (الدحل) بمجوهراتي وكريستال الثريات ويغنون ويزرعون الأرض ويلونون الجدران وتفوح من القصر الميت الموسيقى والازهار) ...
ولم اجرؤ على ان اقول كلمة واحدة . في عيني خالتي – كما في عيني امي – كما في عيون بقية تلك العصابة ، عصابة « مافيا البورجوازية » ما يدفع بي الى الاستسلام .. ربما ادمنت عجزي منذ طفولتي ... ولم يعد بوسعي ان أتمرد الا عبر الحلم ... ها انا اعود الى موضعي بين المعزيات . متى يعود الليل لاحلم ؟
كابوس البارحة ما يزال جاثماً فوق صدري ... كم يبدو لي حقيقياً ... كم هو مرعب .. لو جاء هاني لحدثته عن احلامي معه وسألته هل يحلم معي ... ومثلي ؛ لكنني لم أره قط خلال النهار الا يوم موت أمي . وها انا اتمسك بحلقة مفاتيحي . واتحسس المفتاح الذي حلمت بأنه انتزعه مني في

كابوس الليلة ولا اجده ! المفتاح الذي اجهل مصدره وكيف ومتى انضم الى حلقة مفاتيحي الضخمة ، وقد جربته في كل غرف هذا القصر ولم يناسب اياً منها ، وفيه ما يذكرني بمصباح علاء الدين في الاسطورة ... وتملكتني عادة التمسك بهذا المفتاح ، وباستمرار كنت اتحسسه ويحلو لي ان اسميه مفتاح الليل السري ، مفتاح كوخ الحياة ، حيث طاولة العمليات لا تفشل ، وحيث الجسر الى الخلود ، جسدان مجدولان في الليل ممدودان بين عالمنا التافه حيث التصفيق أو التوبيخ وذلك العالم السري حيث الخلود رعشة لا تنتهي ، وحالة استمرار اهتزازية .. الاستقرار فيها هو الحركة ...

لقد اختفى المفتاح اثر كابوس البارحة ... يا لها من صدفة غريبة ... ويا له من كابوس مروع ...

(ليلة البارحة ، كما في كل ليلة عجزت عن الصلاة . وكما في كل ليلة . الحلم ذاته ... نهضت بقميص النوم ذاته الى سيارتي . ادرت محركها . اتجهت الى عاليه . تابعت طريقي اليه ... لم اجده في الحديقة ... فتحت الكوخ بمفتاحي الصغير ، مفتاح الليل السري ...

وكما في كل ليلة ، تعريت ، ثم ارتديت مئزر العمليات وتمددت فوق السرير الحديدي وانتظرت ان يدخل ويرتدي ثياب الطبيب لنمارس الطقوس نفسها ..

وهنا تبدل الحلم للمرة الاولى وصار كابوساً ...

فقد دخل فجأة وبدا عليه انه دهش لرؤيتي . بخشونة طلب مني مفتاح الكوخ – مفتاح الليل السري ، فاستخرجته من حلقة مفاتيحي واعطيته له . اخذه وظل واقفاً امامي يتأملني وفي عينيه بريق مجنون والعرق يقطر منه ، ثم امسك بالمشرط واقترب مني وللمرة الاولى شعرت بالخوف .. وفجأة انقض علي وغرسه في موضع القلب تماماً لكنني كنت رميت بنفسي عن السرير الى الارض وسمعت صوت السكين وهي تمزق الغطاء وتغوص في السرير حتى حديده ...

وهجم علي غاضباً وهو يصرخ : ايتها الغبية ... الا تفهمين ؟

واقترب مني وشدني من يدي ، وخرج بي الى حقله ، وركض وهو يشدني وانا أسقط على الارض وهو يسحلني ولا يبدو عليه انه يلحظ كم اتألم حتى وصلنا الى تمثال استطعت ان اتبين في الضوء الشاحب انه تمثال امرأة عارية تشبهني .

صرخ بي : انظري ماذا صنعت من اجلك .. دعيني انقذك ... انا المخلص ... انا المخلص ...

بصوت وحشي مجروح كان يلهث وهو يصرخ « انا المخلص » بينما اصابعه تضغط على عنقي وانا اتلاشى ذعراً واختناقاً وعرفت انه يقتلني وسأموت .

صحوت من اغمائي ووجدت نفسي فوق السرير في الكوخ اياه وكان هو جاثياً على الارض ينتحب ... لم اتحرك ... كان يبكي بمرارة ويخاطب (جثتي) قائلاً : المسرحية التي مارسناها فوق هذا الفراش كانت بلا جدوى ... طريقتي في الخلود هي الاصح .. الموت .. الموت .. وينفجر صارخاً هائجاً من جديد ... الموت ... لقد اغتلت الموت فيك ... يجب ان اغتال الموت في كل شيء .. وأسمعه يركض الى الخارج ... وأسمع أصوات احجار تتحطم تحت مطارق ... وانهض من موضعي فوق الفراش ... واراه في حقله يحمل مطرقة ويدور بها مسعوراً يدمر تماثيله كلها وهو يصرخ صيحات وحشية كحيوان علق في فخ لا يجد منه فكاكاً ... كان مستغرقاً في عمله ، ولم يلحظ انني هربت منه الى سيارتي ... وانطلقت بها ارتجف ، وفي غمرة رعبي حلمت بانني صدمت جانبها الايمن بمدخل حقله وان الضوء الايمن الامامي انكسر ...

واستيقظت من الكابوس مذعورة ...) .

وما ازال مذعورة ...

اتحسس « الايشارب » الاسود الذي لففته حول عنقي بكثير من الغم ..

يا لفظاعة الكابوس !

ها قد نهضت قافلة غربان الموت الى غرفة الطعام ... يأكلن بشراهة ... سيدة تصرخ . يقولون ان شوكة علقت في حلقها من السمكة . يا لشراهتهن . تصرخ خالتي : اطلبي الدكتور هاني ...

اتمنى ان اسمع صوته ... لن اقول له شيئاً عن الشوكة في حلق هذه العجوز الشرهة ... سأسأله عن الشوكـة في لحم احلامنا ... عن كابوس البارحة ... وعن احلامي قبلها ... وسأطلب منه ان يداويني..

زوجته ترد وتقول لي بكل شماتة : هاني مصاب بانهيار عصبي . تستطيعين زيارته في مستشفى المجانين اذا احببت !

وتغلق سماعة الهاتف في وجهي !

اركض مجنونة في القصر ، وانا اتذكر تفاصيل كابوس البارحة ... اجل ! حلمت بأنه اخذ مني مفتاح الكوخ ... مفتاح الليل السري .. من جديد أتأمل حلقة مفاتيحي ... اختفى منها ذلك المفتاح الذي لم اعرف كيف جاء وكيف راح ... اكشف ثوبي الاسود الطويل وأرى الكدمات تغطي ساقي . انتزع الايشارب الاسود عن عنقي واجد كدمات وردية مزرقـة على جانبيه ...

اركض الى الكاراج بحثاً عن سيارتي... اسمع حواراً يدور بين « تفاحة » و « ابو عبدو » ...

تقول تفاحة ضاحكة : يا ليت « الست » تتزوج حبيبها الذي تخرج كل ليلة للقائه بالسر كما سنتزوج انا وانت ... لمـاذا (الاكابر) قصصهم معقدة وافعالهم عجيبة ؟ ...

ويرد « ابو عبدو » مشغول البال : البارحة عادت وهي تترنح ... وسيارتها مضروبة .. انظري .. ضوء السيارة الامامي الأيمن مكسور ... اتركينا من سيرتهم ... اناس مساكين ...

ادخل الى الكاراج واتظاهر بأنني لا ارى عناقهما... اركب سيارتي ...

اركض بها الى عاليه وادرك ان قدمي ترتجف فوق « دعسة » البانزين ...

اصل الى الحقل ...

للمرة الاولى ارى المكان في ضوء الشمس وبلا احلام ، رماح الشمس تلتمع شرسة وحادة فوق حطام التماثيل ...

واشعر بأنني ادخل قرية بعد مجزرة قتل كل اهلها فيها وها هم متناثرون حولي ... وانا وحدي بقيت فيها .

اركض الى الكوخ ... اجده محروقاً ...

وانهار فوق كومة من الرماد والبقايا ...

أحدق في الاشياء ثم انفجر باكية ... ففي زاوية الحقل كان تمثالي ما يزال منتصباً لكنه مشوه الوجه كمن يرتدي قناعاً ...

انهار ، وأغرس اظافري في الرماد واحدق مذهولة في الحلم الذي استيقظ ... ومشى ... ومضى ... وانتحر ...

ومن حلقي اطلق صيحة بكاء كتلك التي يطلقها الطفل لحظة ولادته ...

الساعة ٩,٢٥ مساء ٢٩ آب ١٩٧٢

نشرت هذه القصة للمرة الاولى تحت عنوان :

« واستيقظ الحلم »

حريق ذللك الصيف

الليـــل .
اقترب الليـــل .
واقترب موعد ذهابي الى المقبرة ...
(لن اذهب. لن اذهب. هذا جنون هذا جنون: يعاقب عليه القانون . سيصرخ بنا القاضي : ألم تجدا مكاناً آخر تمارسان الحب فيه ؟.. سيصرخ بنا ملاكو شقق حي «الحمراء» : لمن الشقق المفروشة والاضواء الشاحبة والفراش المستديرة؟... ستلحق بنا راهبة: «تزوجا!»... ستطاردنا الهياكل العظمية لسكان المقبرة في مظاهرة صامتة مرعبة وقد رفعوا لافتات تطالب باخراجنا من جمهورية الموت المستقلة .. لن اذهب الليلة) .. طوال النهار وانا اكرر هذه الكلمات ... وعندما يحين منتصف الليل ، اجدني اركض الى المقبرة .
(لن اذهب .. لن اذهب ... هذا جنون يعاقب عليه القانون) .
ووجدت نفسي امام سور المقبرة كطفل مخطوف عاد الى داره .
ها هي الشمس قد غطست في البحر للتو .
والليـــل ،
الليل – سكين الطبيعة التي تكشط النسيان عن الجراح المنملة ، وتعيد الى الذاكرة نزفها – قد أقبل ...
وها هو الالم الغريب الذي يتفجر كل ليلة في كل موضع من جسدي – يبدأ من رأسي – ثم يسيل جداول من كل اعضائي ليصب في نقطة محددة : في معدتي ... بالضبط ، في تلك الرقعة حيث الجلد مشوّه من اثر ذلك

الحريق ... ذلك الحريق ... ذلك الحريق ...

(قلت للطبيب : احس بألم لا يطاق هنا ...

كان عجوزاً وبطيء الحركة ، وله عينان باردتان مثل عيون الدمى المحشوة بالقش . قال : تمددي واخلعي ثيابك وأشيري الى مكان الالم .

وفعلت . قال لي : هذه معدتك . ربما كنت مصابة بقرحة . جيلكم يصاب بالقرحة مبكراً . تصوري ، حتى الاطفال صاروا يصابون بالقرحة هذه الايام .

وعدت اؤكد له : ليست معدتي التي تؤلمني . انه هذا الحرق في جلد معدتي ..

قال بدهشة وقد صارت عيناه الباردتان كرتين من الزئبق تركضان : ولكنه حرق مندمل ... جرح مندمل ... لا يمكن ان يسبب أي الم ...

وعاد يتحسس موضعه وهو يكرر : الجرح مندمل تماماً . لا يمكن له ان يسبب اي الم . انك تتوهمين ذلك .. انه مندمل منذ عامين على الاقل ! .

ولكنني كنت اتلوى ألماً ... بل انني كنت ارى ذلك الموضع يشتعل كرقعة من السبيرتو فوق البلاط ... كانت لهبته خافتة ومزرقة لكنها حارة ومؤلمة ... وبدأت اصرخ الماً ... وجاء الطبيب بابرة ، حقنني بها ، وظلت النار تشتعل فوق بطني لكن خدراً ممتعاً سرى في بقية حواسي ...

قلت للطبيب عبر ضبابات خدري : النار ما تزال ملتهبة فوق ذلك المكان ... هل تريد أن احكي لك كيف حدث ذلك ... ومتى ؟ .

رد بقسوة : لا . لقد حقنتك بأحد مركبات الافيون ومن الافضل ان تسترخي وتنامي ... غداً يجري تصوير معدتك بالاشعة ...

وحينما جاء الغد ، أمسك الطبيب بالصور الشعاعية وقال : (نورمال) . كل شيء طبيعي و (نورمال) ... كل شيء على ما يرام ... معدتك سليمة .

وأمسكت بالكرتونة البنية الشفافة ، أتأمل الخطوط التي يفترض انها صورة معدتي ، وانفجرت اضحك واضحك .. هذه الآلات الضخمة

الباردة التي مددوني على صفائحها ، واقتربت عدساتها مني وابتعدت ، اضاءت وانطفأت ، هذه الغرفة الجهنمية والاشعة التي يفترض انهـا معجزة .. أهذا كل ما اخترقته مني ؟ أهذا كل ما رسمته من اعماقي ؟ .. يوم رسمني الباهي بعينيه المجردتين ، بيديه العاريتين ، بريشته الرفيعة الدقيقة ، استطاع أن يسبر غوري وان يكتشف وجود الحريق المستمر .. المستمر .. قلت للطبيب : الحرق ما يزال مستمراً وهو سبب الالم . صرخ انك تتوهمين الالم في ذلك الحرق العتيق المندمل .

اتوهم ؟ ما الفرق ما دمت أحس به ؟
هل تحب ان أروي لك حكاية الحريق الذي لا ينطفيء ؟ ..
في فرصة اخرى . انا الآن مشغول .
ومضى . كلهم (مشغول) ولا احد يفعل شيئاً) .

الليل ... وانا احوم حول سور تلك المقبرة في حي الزيتونة ببيروت (ذهب رفاق المقبرة وتفرقوا في ارجاء هذا العالم الواسع ، وبقيت أنا ارملة الفرح لا املك الا ان اجيء كل ليلة اليها) . لا استطيع الدخول الآن فحارسها ما يزال يقظاً ... يجب ان انتظر ثلاث ساعات اخرى على الاقل .. (يجب ان أذهب من هنا ولا أعود ابداً ، هذا جنون ... جنون)

ولكن ها انا مسمرة امام الباب الحديدي الاسود للمقبرة ... لا أحد يلحظها ... كلهم يمر بها راكضاً كأنها ليست هناك .. يمر رجلان يتشاجران . تتعالى اصواتهما . يتوقفان بالقرب مني — قرب باب المقبرة — ويتابعان وقد كادا يتشابكان بالايدي .

كم هو مضحك منظر المتشاجرين عند اسوار المقابر .. الجميع يمرون بالمقابر دون ان يلحظوها ... في حي (الزيتونة) يقرأون لافتات ملاهي الليل وكباريهاته ولكن أحداً لم يلحظ هذه المقبرة الصغيرة المقابلة للبحر ، على مرمى حجر من البطون المهتزة بجنون ، لراقصات الزيتونة ... وانا

ايضاً لم الحظها قط قبل أن يكتشفها الباهي .. وليلة التقيت بالباهي تخيلت أن يدور أي شيء بيننا وفي اي مكان الا فوق تابوت في مقبرة .. ليلة التقيت به منذ ثلاثة اشهر كانت الاحزان تمطر من مسامنا وكلماتنا وضحكاتنا ..

(كانت ليلة حزينة من ليالي اواخر حزيران ١٩٦٧ بعد الهزيمة باسبوع او اكثر ... كل اضواء بيروت قد صبغت بأزرق نيلي ، وبدت الوجوه والابنية والشوارع والسيارات كقبيلة بدائية في حداد ... فالحرب انتهت قبل ان تبدأ ، والهزيمة حلت ... وكان الحر خانقاً والريح ماتت ، ورائحة نتنة تفوح من البحر ، والالم في جرحي المندمل احسست به للمرة الثانية بوضوح تام ... يوم طردت من الحزب قبلها بأشهر – او استقلت لا فرق – احسست ببوادر الالم للمرة الاولى .

بدأ غامضاً في جسدي كله ثم صبت جداوله في موضع ذلك الجرح المندمل أو هكذا خيل اليّ ... تلك الليلة كنت واثقة أن الالم هو حريق ، وأن جلدي تحت الثياب ما يزال يتابع احتراقه منذ ليلة الحريق في القرية البعيدة عام ١٩٦٥ ... وكنت اكره ان اتذكر ما حدث .. وبدأت اسلي نفسي بقراءة الاعلانات على الجدران واعمدة الكهرباء .. ادور بينها كالقطط الضالة ... اقرأ صرخات احتجاج شعبية مكتوبة بدهان احمر أو اسود وبخط مشوش . واضح ان الذين كتبوها فعلوا ذلك في الظلام ، وبأيد مرتجفة ، وفي غفلة عن الحراس .. شعارات تندد بالاستعمار وبعملائه ، تطالب بالثورة ... والخبز ... ما جدوى تلك الجدرانيات كلها ؟ ... على احد الجدران اعلان ظننته بطاقة نعوة .

كم هي مضحكة النعوات الملصقة في شوارع الشعوب المهزومة ... ما اهمية ان يموت فرد او آخر حينما تخر كرامة الوطن صريعة تحت النعال ؟ ...

أعترف انني احترفت خلال الاسابيع اللاحقة للهزيمة الدوران في الشوارع ، وتمزيق بطاقات النعوات التي كنت اصادفها ...

اقتربت من بطاقة النعوة لامزقها ، وفوجئت بأنها دعوة الى حضور معرض الفنان (الباهي الرافع) الشهير ، القادم الينا من قطر عربي شقيق . كان تاريخ افتتاح المعرض هو الخامس من حزيران . — كم هو سيء الحظ هذا الفنان ! — ومكانه في صالة العرض بالفندق الذي اقف بالقرب منه . لماذا لا ادخل واتسلى قليلاً ؟ اذا كانت اللوحات ما تزال هناك ، سأضحك وانا أتأمله وقد رسم المناظر الطبيعية التقليدية الخضرة بينما الدماء تلطخ حقول بلادي ، وربما كانت هنالك لوحة لبورجوازية ملساء البشرة — لم يحترق بطنها ولم تسمع صوت قنبلة ولم تدخل حزباً ولم تتمزق وتهترىء قبل ان تبلغ الخامسة والعشرين من عمرها — تجلس خلف البيانو مثلاً او تشتغل (الكانفا) ... اجل ... سأدخل الى المعرض وسأمزق اللوحات كما امزق النعوات ...

دخلت الى الفندق . كان فارغاً تماماً . هبطت الدرجات العديدة وانعطفت يميناً الى صالة العرض...

كانت الاضواء شاحبة والقاعة فارغة تماماً وعلى الجدران لوحات مذهلة ... لا نساء . لا بيانو . لا ولائم . لا شيء في اللوحات سوى لون رمادي حزين بظلاله كلها ، لوحات توحي بأن من رسمها كان يرسم فيها كلها شيئاً واحداً اسمه الهزيمة ... من اللوحات تفوح رائحة الدمار والهشيم والحريق ، وصدى صراخ النساء والاطفال ، وبقايا الرجال في الارض المحروقة ... كان الرمادي في اللوحات هو رماد الارض المحروقة وبه رسمت اللوحات كلها .

وبدأت ادور بينها ... بين الحين والآخر تطالعني نقطة بيضاء صغيرة ، او خط اصفر كشعاع شمس يرمز الى الامل ، لكنه أمل صغير وسط هذه الارض المهزومة المحروقة .. يا له من فنان ! لو لم اعرف أن تاريخ هذه اللوحات يعود الى ما قبل حرب حزيران لما صدقت ... ها هو الباهي وقد استطاع برؤياه الفنية الثاقبة ان يتنبأ بالهزيمة قبل حدوثها ... هذه

اللوحات هي بكائية الهزيمة ، هي نبوءة بها ... لو تأخرت الحرب شهراً لقامت قيامة النقاد من رفاقي في الحزب على تشاؤميتها ... لاتهموه بالعمالة وبإضعاف الروح المعنوية للشعب كما اتهموني عبر كتاباتي في جريدة الحزب شبه الرسمية ... نجيء الى الحزب كي نكافح عبره من اجل الحرية ، ونفاجأ بالديكتاتورية في اساليبه مع نفسه وبين اعضائه ... قلت لهم انني لا ادري كيف يمكن لحزب ينادي بالحرية ان يمارس الديكتاتورية في اساليبه ... فقالوا لي ان « الصفحة » التي احررها متشائمة . قلت لهم : لا نستطيع الغاء الحقائق او التكتم عليها بحجة التفاؤل الثوري ... قالوا انني بدأت انحرف . قلت لهم بل ان الحزب ينحرف عن ذاته حين يخون المبادىء التي وجد أصلاً ليحققها .. قالوا : التفاؤل الثوري اولاً . قلت : الحقيقة اولاً . قالوا : التفاؤل اولاً . نفذي ثم ناقشي ... وأصررت على أن أناقش ولم أنفذ !

عدت ادور بين اللوحات والعرق يتصبب مني وامام كل لوحة اكتم شهقة ... ثم شهقت حين اصطدمت برجلٍ في القاعة لم انتبه حين دخل اليها ..

قال لي بشيء من السخرية : أهلاً بالمتفرجة الوحيدة لمعرضي ... هل اعجبك ؟

اذن هو الباهي . عينان ذكيتان نفاذتان وصوت شرس وشعر عسلي وقميص اسود ويدان كبيرتان كأيدي عمال المصانع ووجه نظيف وصريح وواضح ، وسؤال طرحه علي من المفروض ان ارد عليه . هل اعجبني معرضه ؟... احسست عبارة (اعجبني) هزيلة ومصابة بفقر الدم في التعبير ... القضية امام لوحاته ليست (اعجاباً) ... انها لوحات موجعة ، تهز ، توقظ ، تنبش الجرح وتعرضه أمامك ... انك لا تستطيع ان تقول ان الجرح اعجبك ... ولكنك تدهش لمهارة الفنان في الاحاطة به واكتشافه قبل ان يحس به الجسد الجريح ... اعجبني معرضه ؟ بل هزّ جذور احزاني

كلها ... معرضه تجسيد عملي وفني لكل ما حاولت ان اقوله لرفاقي في الحزب من نبوءات حزينة ، انه اثبات لصحة ما اقول .. ولكن ما جدوى ذلك؟ لا ريب أنهم بعد الحرب ازدادوا الآن تعنتاً وفاشية وديكتاتورية وارهاباً ... يا للفجيعة ! .. ماذا اقول لهذا الرجل الواقف امامي يسألني رأيي بلوحاته؟ هل اقول له انها نبشت احزاني كلها؟ وانه حتى « حادثة الحريق » اراها مرتسمة في احدى لوحاته واشم عبرها رائحة اللحم المحترق واسمع صراخ الاطفال وصراخي .. و ... وماذا اقول؟

بدت على الباهي خيبة الامل لصمتي . قال بلهجته العربية التي تكشف لكنة قطره : طبعاً لم يعجبك. لوحاته لا تصلح للصالونات . انها على اية حال ليست للبيع !! ..

وسمعنا وقع اقدام على الدرج ، وفوجئت بدخول (ابو رعد) وبدا من ترحيب الباهي به انهما صديقان حميمان ... سرني تلك المصادفة ، فابو رعد — كما يحلو لنا أن نلقبه في مقهى « الهورس شو » لان ضحكته التي لا تفارقه تزلزل كالرعد — .. صديق قديم وحميم ، ورفيق سابق ترك الحزب منذ اعوام بعيدة ، وكان يسخر دوماً مما يسميه بانضباطيتي ومسلكيتي الحزبية الرصينة ... وبعد ان اطلق ضحكته الشهيرة الشريرة البراءة ، لم يفته أن يسألني بخبثه المعهود :

— ماذا ماذا ... الحزبية النشيطة ليست في الجريدة؟ لاحظت ان «زاويتك» قد غابت منذ اسابيع ولم اكن ادري ان الباهي هو المسؤول عن ذلك ..

وقال الباهي :

— ولكننا لما نتعارف بعد ...

ولم تنقض ثلاث ساعات الا وكنا قد تعارفنا ، فقد قضيناها صامتين تماماً ... مارسنا معاً حزننا الليلي عبر اقنعة الضحك .. ووعيت ان هذا الوجه الوسيم ليس الا بابـــاً مغلقاً تكمن خلفه دهاليز احزان وحكايا صراع لا نهاية لها ... وأنا يا انا ...

سرنا طويلاً على «الكورنيش» الطويل الممتد على طول الشاطىء .. افتقدت مصابيح صيادي الاسماك ... الارصفة مرشوشة بالناس ، يتنكبون «الترانزستور» كالبنادق المكسورة ، ويمشون بتثاقل الجنود المهزومين ، ينصتون الى الاخبار والى اغاني ام كلثوم وبين فينة واخرى تفوح رائحة «الحشيش» الذي حشوا به لفافاتهم ... الشعب الفقير الحزين المتعب ، يترنح فوق الارصفة وخلف نارجيلات المقاهي كمن اصابته ضربة في رأسه لما يصح منها بعد .. وبعد لحظات بدأت اشعر أن رائحة العفونة التي كنت اظنها تنبعث من البحر بفعل حرارة الجو قد تكون رائحتنا نحن ... نحن الناس المهزومين المقتولين دون ان ندري ، الراكضين بجثثنا في شوارع العواصم العربية والمدن والقرى ...

وقال ابو رعد فجأة : رائحة البحر كريهة جداً الليلة ، كأن الاسماك كلها ماتت وتفسخت ... كأننا في مقبرة كبيرة ...

لم أرد .

وكلما توغلنا مسيراً ، ازداد شعوري بأن رائحة العفونة التي نظنها تنبعث من البحر بفعل حرارة الجو قد تكون رائحتنا نحن ... نحن الآلاف الذين نغطي الارصفة ، المهزومين ، المقتولين دون ان نلحظ ذلك ، الراكضين بجثثنا في الشوارع رغم اننا متنا منذ عشرة ايام او اكثر ... نحن الراكضين في المظاهرات بعد الهزيمة ، الملتصقين بترانزستوراتنا ، المستنفدين لكل ما في الصيدليات من اقراص مهدئة ، المتلاشين على الارصفة في ليل الهزيمة الازرق الحزين، متنا قبل ذلك كله، وها هي رائحة العفونة تفوح منا ... كأن الوطن صار مقبرة واحدة كبيرة من المحيط الى الخليج ... كم انا الليلة متشائمة ... كم انا الليلة حزينة وعاجزة عن التفاؤل الثوري ... اشعر ان بديهية الثورية هي ان نعترف على الاقل بالامر الواقع .. «كم انا الليلة حزينة» .. قلتها فيما يبدو بصوت عال .

قال ابو رعد ساخراً : تعالوا نذهب الى مقاهي المثقفين نستمد شيئاً

من التفاؤل الفكري .. هيا نجتاح الهورس شو والدولشي فيتا و .. و ...

وفي المقهى كانت هناك (وجوه) لمفكرين و فنانين ... يفلسفون الهزيمة ... يجترون نظرياتهم ... يتشاجرون من وقت الى آخر . فلسطين لعبة شطرنج فكرية لديهم ..

ثم صمت الجميع حين وقف كاتب مقال مهنته العلاقات العامة ، يحاضر عن الهزيمة وعن حاجتنا الى الالتصاق بالغرب ولعق حذاء اميركا ...

وتعالت الاصوات : اسكت يا وائل . وسكت وائل وعاد الى زاويته في المقهى بعد ان طلب من الجرسون (ويسكي دابل) ...

وجلسنا مع الشاعرين «جاد» اللبناني وسرغون العراقي الرقيق ، الذي ظل صامتاً ومذهولاً ومصفر الوجه ، حتى انه حين فتح فمه ليقول شيئاً خيل الي انه سيصرخ آه ثم يسقط ميتاً ، وقبل أن يقول شيئاً نهض عبقريّ آخر ، وبدأ يتحدث بصوت عال عن فضائل الهزيمة ، وكيف انها نكسة وليست هزيمة، وبدأ يخوّن كل من يجرؤ على ان يقول عبارة هزيمة .. (لماذا دوماً مواجهة الحقيقة خيانة ؟ كيف ننتصر ونحن نخون ذاتنا حين نموه عليها الحقائق ؟)

وأحسست بحاجة الى ان أكون وحدي فهربت الى (تواليت) المقهى واقفلت الباب على نفسي وبدأت أكرر : هزيمة . هزيمة . هزيمة . قتلنا . كلنا اموات . اموات . ثم نظرت الى وجهي في المرآة وصرخت ، فلم يكن لوجهي اي انعكاس في المرآة ! لم تكن لي صورة في المرآة ... وتلاشيت وقد اشتعلت النار في معدتي .. (احسستني احتضن الطفل الملتهب ، واركض به بعيداً عن المدرسة المشتعلة ... وتلاشيت) ... ايقظني قرع على الباب . وصوت الباهي : ماذا حدث ؟ لقد تأخرت . طبعاً تصلحين «ماكياجك» ... قالها بسخرية ! ... طبعاً . طبعاً . وخرجت اليه .

كان هنالك محاضر جديد ، وعلى وجه «ابو رعد» عبوس لم اره قط من قبل حين قال : اشعر بأنني في بيت للمومسات . هذا العهر الفكري

لا يطاق. تعالوا نسهر في «حي الزيتونة» فهذا أفضل... ان العاهرات هناك يحاضرن عن الشرف اقل مما يحاضر مثقفونا عن الوطنية.

وغادرنا (مقبرة المثقفين) واتجهنا نحو الزيتونة...

بدهشة قال الباهي: هل ستأتين معنا؟..

ولم ارد وانما ازددت التصاقاً بهما... سأذهب معهما الى اي مكان ... المهم الا أبقى وحدي في الليل... منذ هجرني الحزب – او هجرته – صار الليل مأساة، وعاودتني آلام الحريق في بطني، ومنذ ايام الحرب والهزيمة والحريق لا يفارقني... اقضي الليل وانا ادور في الشوارع وحيدة، يطاردني رجال يريدون شراء لحظات نسيان مع اية امرأة... تطاردني ذكرى تلك المدرسة، والاطفال والقنابل والحريق... ان عملي في الصباح (كمساعدة بحاثة) للبروفسور عطا في الجامعة لم يعد يكفيني... يجب ان افتش عن عمل ليلي... اي عمل يقيني هذا التشرد الموجع...

وصلنا الى الزيتونة. دخلنا خلف «ابو رعد» في بناء عتيق مهترىء، وصعدنا درجاً شاحب الاضاءة. ها نحن في دار عتيقة تفوح من جدرانها رائحة عفونة وكحول وعطور رخيصة.. الابواب مفتوحة على بعضها، وقد تناثرت فيها الطاولات والمقاعد القشية المهترئة... المكان مظلم بما فيه الكفاية لترى أن حول بعض الطاولات نساء سمينات وتعفيك الظلمة من مزيد من تفاصيلهن...

وتقدمت منا احدى النساء وحينما صارت أمامنا تماماً تبدت بشاعتها الفائقة. نظرت اليّ بشراسة وقالت:

– المضاربة ممنوعة. عودي الى مركزك...

وقال الباهي بسرعة: هي معي. رفيقنا يبغي واحدة لنفسه...

تناست قضية (اخلاقية العهر ومكافحة المضاربة) وسألتنا ماذا نريد ان نشرب... ثم ذهبت الى آلة «الجوك بوكس» ووضعت اسطوانة.. «تعالوا نتدلع» بينما نهضت اخرى ترقص على انغامها بضجر واضح..

كان الجو ثقيلاً وحزينا ولم تقف أيهن لتحاضر عن اي شيء ... كان الحزن كثيفاً وحقيقياً ومرهقاً ، لذا لما جاءت الكأس أمامي ابتلعتها دفعة واحدة واحسست بسائل ناري يكوي حلقي وبرائحة ذكرتني (بوابور الكاز) في قريتي البعيدة .. ولاحظت فيما بعد ان «ابو رعد» والباهي قد فعلا الشيء ذاته .

جلسنا طويلاً ، وشربنا طويلاً ، وصمتنا طويلاً ، وكرت الاغاني وتوالت نساء المكان على اداء تلك الرقصة المتثاقلة ، بحزن ولامبالاة دب يدور به صاحبه في الشوارع ، ويرغمه على اداء دوره امام المارة ..

ولاحظت وقد اعتادت عيناي الظلمة ، ان الجدران متآكلة وطحالب العتق قد نمت عليها وانها تشبه الدمن القديمة والقبور الفقيرة التي لا شواهد من رخام عليها تشير الى هوية اصحابها ... وأن رائحة الموت تفوح من المكان ... وفي صدر القاعة كانت هناك مرآة مكسرة نظرت اليها ولم ار فيها وجهي ، كما لم أر أحداً من الموجودين . ربما كانت الظلمة . وربما كنا حقاً امواتاً ... كلنا .. كلنا ... وعادت رائحة العفونة النتنة التي شممتها على الكورنيش وفي مقاهي المثقفين تملأ انفي ، والتهبت النار في بطني ... كنت احسها تحرقني تحت ثيابي سراً وباستمرار دون ان يشم رائحة اللحم المحترق احد ، ودون ان يلحظ ذلك أحد ... ربما بدأت ابكي . اخرج الباهي اوراقه وبدأ يتأملني ويرسم ثم قال لي :

ـ كم انت حزينة جميلة .

ثم مزق الورقة وعاد الصمت ...

فجأة قال ابو رعد : تعالوا نهرب من هذه المقبرة الاخرى ..

من جديد خرجنا الى الليل . لكن الرائحة كانت هناك ايضاً . سرنا قليلاً . تجاوزنا كاباريهات الزيتونة وكهوفها ، ومحطة البنزين مغلقة وبلا اضواء ، كأن وقود العالم كله نفد ، ثم قطعنا الرصيف ومررنا بسور طويل يحجب ما خلفه ، ثم باب اسود صغير ... كانت الساعة تقارب الثانية صباحاً والارهاق يجلدني ..

قال الباهي : كم انتما مملاّن ! يا لها من سهرة مضجرة ! .. كل منكما جنازة قائمة بذاتها ومن الافضل ان اسهر معكما في المقبرة ..

قالها شبه ضاحك ودفع الباب الاسود الصغير وكم كانت دهشتي عظيمة حين انفتح الباب ولم يكن مقفلاً وبدت خلفه في النور الشاحب مقبرة ! ...

وفوجىء أبو رعد بذلك كما فوجئنا ... ولكنه تابع النكتة ورغبة في تحريك الامسية بأية وسيلة تحرضه ... قال للباهي :

– تعال ندفن نوف في المقبرة ... انها ميتة على اية حال ...

في عينيهما التمع بريق قاس وسادي مثل التماع فأس في الظلمة قبل ان تهشم جمجمة رجل . احسست انهما قد يفعلان ذلك ، قد يمارسان تمثيلية دفني وهما جادّان ... واحسست براحة عجيبة مثل محكوم بالاعدام ينتظر جلاده منذ اسابيع بلا نوم ... واخيراً حضر الجلاد ...

بكل هدوء دخلت الى المقبرة ... كان كل شيء ساكناً ومريحاً والموت علنياً وبلا اقنعة . الرائحة النتنة التي تظلل سماء المدينة كسحابة ليست في المقبرة ... ولم يخرج أحد من قبره ليلقي خطبة يقول فيها انه ليس ميتاً ، وكل شيء ساكن بين الاشجار العالية المتناثرة في المكان .. تبعني الباهي وابو رعد ...

وهمس الباهي : – الست خائفة ؟ ..

واشرت اليه أن يصمت ، فقد كان هنالك صوت شخير خافت ، وقبل ان يهرب الباهي أو ابو رعد خوفاً اشرت نحو جسد ضخم مرمي على الارض لرجل نائم .. وفي الظلمة التي اعتادتها عيناي كقطة شاهدت الى جانبه بطحتي عرق فارغتين . قلت هامسة :

– انه حارس المقبرة .. لا تخافا ... انه ثمل كقربة ماء .

سرت امامهما كأني دليل هذه الخرائب . تجولت بهما بين القبور كمن يدور بالزوار في بيته ... تذكرت فجأة كل قصص خوف الناس من المقابر ودهشت لها .. كانت المقبرة هادئة ووديعة وسكانها صامتين

كالمفكرين والفلاسفة ...

وتوغلنا فيها حتى وصلنا الى باب حديدي يقود الى مدفن ما تحت الارض – لا ريب في انه مخصص لعائلة ثرية – وحاولت فتحه لكنه كان مغلقاً باحكام .. وتابعنا سيرنا بهدوء ، وكنت اقرأ شواهد القبور الرخامية كأنني ابحث عن اسمي فوق قبر منها ... ولم أجده ... وقررت ان قبري مثل قبور الاطفال والفقراء لا شاهد عليه وان اية قطعة تراب هي جثتي ...

وصلنا الى مكان مظلم جداً قربه جدار عال ، اصطدمنا بشيء خشبي تبينت فيما بعد وانا اتحسسه انه صندوق كبير .. او تابوت ...

وهنا كان ابو رعد قد استعاد انفاسه وتذكر أن المقصود من دخول المقبرة كان اخافتي والضحك قليلاً ... لذا مد يديه الى غطاء التابوت ، فانزاح عنه بسهولة غير متوقعة وقال لي :

– تمددي في تابوتك ...

بكل هدوء تسلقت التابوت ، وتمددت في داخله ، أحسست تحتي باقمشة باردة وبشيء صلب . تعاون الباهي وابو رعد على اقفال غطاء التابوت فوقي . غمرتني الظلمة والصمت والسكينة ، أحسست براحة طفل عاد الى رحم امه الحنون ... استرخيت داخل التابوت كما لم استرخ منذ اعوام بعيدة ، انا اللاجئة المطاردة ، الحاملة لحقيبتي وافكاري واخطائي الراكضة بها داخل فم تمساح انزلق على اسنانه وانجرح وهو لا يبتلعني ولا يفرج عني ... تعبت تعبت تعبت . كم أنا متعبة ... كم أنا متعبة ... ها قد انطفأ الحريق فوق بطني ... منذ عام ١٩٦٥ وهو مستعر .. منذ انهيت دراستي الجامعية وعدت الى قريتي الصغيرة في الضفة الغربية قبل ان تكون محتلة وانشأت تلك المدرسة لاطفالها ... طيلة ايام دراستي في الجامعة ببيروت لم اعرف الراحة ... عجزت عن التكيف مع تلك المدينة التي تكبر بسرعة وتصغر كل يوم اخلاقياتها ... كأن ثمن كل ناطحة سحاب تعلو فيها قطع جذور قيم انسانية كثيرة .. كنت فقيرة وقد انقذني

ذلك من رعب الليل والوحشة في بيروت ... فقد كنت اعمل في جريدة الحزب ليلاً ، وادرس بقية الوقت ... ويوم حملت شهادتي باحدى يدي كنت احمل بطاقة العودة الى قريتي باليد الاخرى ... الغارات الاسرائيلية المتكررة على القرى لم توفر قريتنا ... ولماذا توفرها وفيها رجال اشداء شجعان كبقية القرى ؟ ... ما لا استطيع فهمه ، لماذا قتلوا امي العجوز الكسيحة في كرسيها المتحرك الذي ابتعته لها من اول راتب حصلت عليه ؟ .. ولماذا رموا القنابل على مدرستي وليس فيها طفل عمره يفوق الرابعة عشرة ؟ .. كان هنالك ولد مصاب بشلل الاطفال حاول ان يركض مع رفاقه الهاربين وقد اشتعلت النار في طرف ثوبه وهو يعرج كدجاجة قطعت احدى ساقيها للتو .. كنت في طريقي الى الهرب والسقف يتداعى كتلاً من نار .. لم استطع تركه يشتعل هكذا . خلعت معطفي السميك ولففته به واحتضنته وكان مثل جمرة تعول وتصرخ وفجأة احسست بأن بطني حيث ضممته الي يلتهب وانني اعوي معه في صرخة الم متوحدة .. كم كان الالم رهيباً ! حتى حينما فكوا الاربطة عني ظل الالم حاداً كلما وعيت انني فقدت امي وداري التي حولتها الى مدرسة وشاهدت أطلالها ... وهربت من قريتي الى بيروت لاعمل ولانسى ... غرقت في عملي . صباحاً في الجامعة كمعاونة للعميد البحاثة . مساء في جريدة الحزب ... وكدت انسى كل شيء عن جرحي المندمل .. لم اعد اتذكره الا حينما استحم ... وذات يوم طلب مني العميد عطا ان اعد له معلومات حول الامية في البلاد العربية .. وبدأت اجمع المعلومات ... هالتني الاحصاءات ، والنسبة المرتفعة للامية : ٩٠٪ . وفي المساء حين ذهبت الى جريدة الحزب لاكتب التهبت النار في جرحي غير المندمل ، اذ وعيت ان الناس الذين اريد ان اخاطبهم هم الذين يعجزون عن قراءة سطوري ..

اما الآن فها انا استرخي في التابوت ، انطفأت النار في جلدي وهدأت الجمرة الملتصقة بمعدتي ، دموع تنحدر من عيني بصمت مطبق كما

تتعرق جدران المغاور غير المكتشفة ، اترك ذراعيّ تسقطان في ظلمة التابوت مثل مجدافين بلغ قاربهما شاطئه الاخير . افرد اصابعي في كفي مثل طير متعب يفرد في العاصفة جناحيه ويتركها تقوده الى حيث تشاء ، واعي وعياً مبهماً بأن الشيء الصلب تحتي قد يكون جثة ملفوفة بكفن ولكن ذلك لا يهمني ... الا يدفن الاموات فوق الاموات في قبر واحد؟ .. ومن خارج التابوت يتعالى صوت ابو رعد والباهي وهما يغنيان شيئاً ما بلغة غير مفهومة ، وبنغمات بدائية حزينة كنائسية ، كصوت اول ارغن في كنيسة ... نغمات ملتاعة كصوت الريح في حقل من القصب ... كم هو رائع ان ينتهي كل شيء هنا ، ببساطة ، ليالي الوحشة الطويلة تنتهي ..

منذ فقدت «حبيبي الحزب» وانا اخرج كل ليلة من مقر عملي في الجامعة بعد ان يأتي عمال التنظيف ثم الحارس لاقفال المكان ... يطردونني ... والعميد يقول : انك ترهقين نفسك في العمل يا آنسة نوف . كلهم يرمون بي الى الليل الوحش ، وفي الخارج تنتظرني بيروت المضيئة الصاخبة مثل مجنونة تنتحر وهي ترقص وتشرب الديمول ...

وفي بيتي الصغير تحولت وحشتي الى خوف من الظلمة ... كنت اشتاق سماع صوت انسان صديق ..

وكنت اهرب من اصدقائي وألملم نفسي على اسراري واحزاني ... عامان عشتهما في بيروت عرفت فيهما عشرات من الاصدقاء فازدادت وحشتي ، وجاست فوق جلدي شفاه عشرات من الرجال لكن أحداً لم يكتشف الحريق في مسامي او الجمرة الدائمة الاشتعال تحت رماد غنجي ...

وداعاً لليل الوحشة الطويل ، ايام كنت أقلب دفتر تليفوناتي اسماً اسماً فقد يكون هنالك انسان حقيقي مررت به دون ان ألحظه او شخص أعيد النظر به ... ولا أجد أحداً ، ويستبد بي الشوق الى سماع صوت انسان ، فأدير قرص الهاتف على الساعة الناطقة استمع الى الصوت المسجل على الشريط واقول له اشياء كثيرة بينما هو يتابع ذكر الوقت مع الثانية دون

أن يصمت للحظة أو يشاركني البكاء على كل ما كان ... وداعاً لكل شيء ... كم هو رائع ان تنتهي اللعبة ، وأعود الى وكري الاصلي في رحم الموت ...

استرخيت في التابوت باستمتاع ورحت في اغفاءة لذيذة ... فقد كان محكم الاغلاق ، لا يتسرب منه الى الداخل خيط واحد من نور (أم تراني رحت في اغماءة لنفاد الاوكسجين من التابوت ؟) طبعاً لا . الاموات ليسوا بحاجة الى كل هذه الكماليات كالاوكسجين ، والخبز ... اني ميتة ... كم ذلك رائع ومريح ... كل ما كان ، ينحسر عن حواسي مثل موجة تنحسر وتخلف على الرمال صدفة فارغة حتى من الصدى ...

اسمع اصوات الباهي وابو رعد شريكيّ في مسرحية الموت ... يبدو انهما يعيشانها بقدر ما أعيشها ... أسمع صوت الباهي يأتيني كما لو من جوف الارض : من التراب والى التراب ... من الرماد والى الرماد ... فلترقد بسلام ...

وأبو رعد يقول بصوته العميق : هنيئاً لك رحيلك عن مقبرتنا الكبيرة .. لقد أحببناك الى حد اننا لم نجد ما هو أثمن من الموت نمنحه لك ...

أصواتهم تذكرني بأن ما يدور هو مسرحية ، تماماً كما تذكر أصوات بقية الممثلين البطلة الغارقة في دورها أن الستار سيسدل بعد دقائق وسترغم على العودة الى عالمها البغيض ، والى ريح الليالي المعتمة القارسة التي تنتظرها عند رصيف باب المسرح الخلفي .

وفعلاً أسدل الستار فجأة حين صرخ الباهي وهو يكشف عني غطاء التابوت : ماذا دهانا ؟ انها لا تتحرك في التابوت . ولا تصرخ خوفاً . ولا حتى تقرع غطاءه .. هل يمكن أن تكون قد اختنقت ؟ هل يمكن أن نكون قد قتلناها ؟

ارتفع عني غطاء التابوت ايذاناً بطردي من المسرحية الرائعة ... بلا مساعدة خرجت من التابوت وحب عظيم نحو شريكيّ في لعبة الموت

يملأني ... كم اراحتني التمثيلية ... بامتنان عظيم ، تقدمت من كل منهما وقبلته بكل عذابي في شفتيه ... وأحسست أنني أحبهما معاً ... وفي وقت واحد ، وبالمقدار ذاته !

تابعت سيري في المقبرة ... وصلنا الى محراب صغير فيه هيكل لكنيسة مصغّرة متقشّفة لا تضم سوى مقاعد خشبية عتيقة مغبرّة (ربما برماد الموت) وقد نما العليق والاشواك في أرضها الترابية ، ولم يكن فيها أية نافذة سوى كوة واحدة صغيرة مستديرة في أعلى السقف تنصب منها حزمة من النور وتبدو مثل الشمس السرية الخاصة بهذا العالم العجيب .

جلسنا على أحد المقاعد متلاصقين كتلامذة أطفال أول يوم في المدرسة ، لا يعرفون ماذا يتوقعون ... ولم يطل أحد ... ولم يطل الاستاذ ... ظلت الكوة مثل عين فاغرة بلا أهداب تحدق فينا ، وشمسها الباردة الزرقة تلسعنا ...

قال أبو رعد : انها أضواء «نيون» الشارع .

وصادقنا بسرعة مؤكدين كلامه لكننا جميعاً كنا نشعر أن الامر أبعد من ذلك وان كان يبدو كذلك ...

جلسنا طويلاً على المقعد الخشبي . فجأة سمعت أصواتاً وهمهمات ، ووقع خطى رجال (أو اشباح) في المقبرة خارج الهيكل الصغير . ظننت انني أتوهم . ان نوبة مسرحية الموت انتهت واستعدت خوفي الطبيعي ... لكن الباهي سأل : هل تسمعون شيئاً . أكد ابو رعد ذلك ... خرجنا راكضين ولم نر احداً ... ومع ذلك بدا اننا فقدنا جميعاً شهيتنا الى البقاء في المقبرة ...

بينما نحن نخرج منها ، اقترب الباهي من أحد القبور وشد الصليب الرخامي (الشاهدة) وانتزعه من موضعه في الارض ، ثم أعطاه لي قائلاً : احتفظي به تذكاراً لهذه الليلة ! ... هل كان يظنني بحاجة الى تذكار كي لا انسى ؟ ... وكيف انسى ... كيف كيف انسى بقية ما كان ؟ وحتى لو لم يملأ لي بيتي بشواهد المقبرة «التذكارات» ... كيف كان يمكن

ان انسى) ...

المطر يهطل بشدة . انها اول زخة مطر في ايلول بعد هذا الصيف الطويل الطويل ... وانا ما ازال مغروسة على الرصيف امام باب المقبرة اعجز عن الذهاب الى اي مكان آخر ... لا اجرؤ على الذهاب الى بيتي **(أشعر بالخوف والوحشة هناك اذا سقط الليل وكنت وحيدة . المكان الوحيد الذي لا يساورني فيه الخوف واحس فيه بالامان هو المقبرة) ...** لماذا لا اذهب الى ذلك الفندق الهادىء القريب من الدولشي فيتا واجلس الى شرفته **(منذ ايام ذهبت الى هناك في غمرة صراعي مع ذاتي كي أكف عن ادماني على المقبرة . كنت جالسة على الشرفة حين وصل رفيق كبير في الحزب ومعه كلب ضخم جداً . كنت خائفة من الكلب ، ومع ذلك اضطررت الى الاستماع الى محاضرته عن ضرورة عودتي الى العمل الحزبي المنظم ، وانه سيتوسط لديهم من أجل ذلك . وحدثني طويلاً عن اليسارية والفقر والشعب الجائع المهزوم وضرورة تقديم تنازلات حتّى من حرياتنا لاجل تأمين اللقمة للجميع . وبعد لحظات جاء الجرسون وقال له : الطعام جاهز كالعادة ... وفوجئت بربطة طعام كبيرة ملفوفة بالورق الفضي تنتقل من يد الجرسون الى (الرفيق) الذي قال لي بكل بساطة شارحاً : هذا الطعام لكلبتي . فأنا أعزب كما تعلمين وليس هنالك من يطهو لي وهي تحب طبخ مطعم هذا الفندق (أي كلبته أو كلبه) . ومضى قبل أن أصرخ به : أنت جثة محشوة بشريط تسجيل وشعارات ... رائحة الموت تفوح منك ... وهربت الى المقبرة) .**

انها تمطر بشدة ... ها انا ابتل حتّى عظامي ... لو امطرت اعواماً لما غسلت مئة مليون جثة مشلوحة في شوارع وحقول وسهول وكهوف هذه الرقعة من الارض ... الى اين اذهب ؟..

اقترب من باب المقبرة وافتحه قليلاً ... ها هو الحارس في ركنه المفضل قرب الباب وقد احتمى بالشجرة الكبيرة وبدأ انتحاره الليلي البطيء ببطحة

عرق بين شفتيه ... لا استطيع الدخول الآن ... لماذا لا اذهب الى عكور افندي وارضى بأن اكون صديقته واستريح ؟..

(رفع عكور افندي حاجبيه الابيضين اللذين لم يعلق بهما الصباغ الاحمر الذي طلا به شعره وقال لي : انت بنت حلوة وناعمة ... يجب ان تكوني « فتاة صالون » ... « ست مجتمع » ... انا مستعد لتزويجك من « أكبر رأس » في البلد ... ما الذي يرمي بك الى النشاط الهدام في الاحزاب الخطرة ذات المبادىء المجنونة ؟ .. لماذا هذا الارهاق (والتعتير) والعمل طول النهار ؟ وكنت ليلتها قد طردت ـ أو هجرت ـ الحزب ، وكنت بهجري له أعبر عن ذروة تقديري لمبادئه التي ما تزال في عروقي . قلت له : مبادىء حزبي ليست هدامة . انها رائعة ... أما عن العمل طول النهار فأمر لا اختيار لي فيه . انا بنت فقيرة ووحيدة ولا أستطيع (احتمال عشيق) ينفق علي ولن اتزوج كي أجد معيلاً مادياً ...

ارتجف كرشه لوقاحتي ، وبدأ عرق الصباغ يسيل من فوديه كساقية من الطين الاحمر وصرخ بي : اضبارتك عندي وأستطيع في أية لحظة اخراجك من البلاد ...

ثم لان فجأة وقال وقد قدم لي كأساً من النبيذ : هذه زجاجة نبيذ نادرة تعبئة عام ١٩٢٩ .. اشتريتها بمبلغ ٢٨٥ جنيهاً وخبأتها لمثل هذه الليلة النادرة ... اقتربي يا حلوة وعودي انثى ...

ولم أكن أنثى . كنت حيواناً جريحاً متعباً . شربت من خمرته ولا أدري لماذا كان مذاقها كمذاق الدم ... ٢٨٥ جنيهاً ثمن هذه الزجاجة ؟ .. أي ما يكفي ثمناً لبناء مدرستي المحترقة ولفتح أكثر من مدرسة ... وتدافعت في رأسي أرقام الاحصاءات عن الامية التي كنت طوال الصباح اعمل عليها . شيء ما أجهله حرك يدي لتمسك بالزجاجة ولتكسرها على طرف الطاولة الرخامية ، ويسيل فوق السجادة النادرة ٢٨٥ جنيهاً تمتصها بشراهة ... ونهض عكور افندي مجنوناً بالمفاجأة ، وكان طرف الزجاجة المكسور ما

يزال في يدي. سمعت صوتي يقول بهدوء السفاحين : اذا اقتربت مني قتلتك. وكنت اعنيها. وأدرك هو ذلك وتركني أمضي ...

في اليوم التالي كنت اتوقع نبأ اخراجي من البلاد. لم يحدث شيء، وانما هتف عكور افندي معتذراً عن (تعكيره) لمزاجي البارحة، قائلاً انه بانتظاري وانه واثق من انني سأجيء اليه ذات يوم ...)

تمطر .. فلتمطر ولتذبني كتمثال من الملح. لن اذهب اليه ... ليست رائحة الصبغة هي التي تفوح من شعره رغم كل عطوره الثمينة، وانما هي رائحة ادوية التحنيط. انه رجل ميت ومحنط منذ زمن بعيد ... وانا اكره الموت المتنكر ...

كل ما في الخارج مقبرة، وهذه المقبرة الصغيرة هي الواحة .. لماذا يخشى الناس المقابر وهم يعيشون في وسطها دون ان يدروا ؟

اعود لأتلصص على حارس المقبرة عبر الباب. لقد ادار ظهره. أنسلّ بسرعة . لا يلحظني احد من المارة (حمداً للغيوم لانها تمطر وتشغل الناس عن فضولهم فيما لو شاهدوني انسل الى المقبرة في هذه الساعة من الليل ... اهتمامهم الآن منصب على اناقتهم المهددة بالمطر) .. اركض بسرعة الى الداخل واختبيء خلف قبر رخامي كبير كفراش اسطوري تظلله سنديانة ضخمة ... فوق هذا القبر عرفت الحب كما لم اعرفه طيلة حياتي ... كان ذلك بعد ان هجرنا جميع رفاق المقبرة وبقيت وحدي والباهي ذات ليلة .. رفاق المقبرة، ما كان اصدق تلك الليالي !.. سرغون وجاد وكريم وعصام ووديع و .. في اليوم التالي لسهرتنا الاولى في المقبرة لم نذهب اليها وحدنا .

(انتظرت منتصف الليل بفارغ صبر بعد أمسية عذاب واحتراق، وذهبت الى (الهورس شو) بحثاً عن الباهي وأبو رعد ... كنت أشعر بحاجة ملحة للذهاب الى المقبرة ثانية واداء مسرحية الموت والتمدد داخل التابوت ... وجدتهما جالسين مع مجموعة من الرفاق ... سألني احدهم : هل شاهدتني البارحة على التلفزيون؟ كنت اتحدث عن النكسة، وقالوا

اني كنت وسيماً ! لم أرد وانما قلت للباهي وابو رعد : هل تحبان الذهاب معي الى المقبرة ؟ ...

ونهضا فوراً ... كانت مقبرة المثقفين تطبق على انفاسهما . قال سرغون وهو لا يعرف اننا ذاهبان فعلاً الى مقبرة : سآتي معكم ... وهب كريم معه واقفاً ، أما جاد فسبقنا الى الباب . خرجنا جميعاً وسرنا صامتين حتّى وصلنا الى المقبرة . دفعت بابها وطمأنتهم الى أن الحارس نائم ومعه رفيق له (أم تراهما حشاشين اختارا هذا المكان الامين والمجاني مثلنا ؟) ...

فوجىء سرغون وكريم وجاد بالمقبرة ، لكنهم بعد لحظات من المسير فيها سمعت تنهدات راحة تند عنهم ... الى التابوت ... كشفوه ... تمددت ... اعادوا الغطاء فوقي ... بدأ الباهي وابو رعد انشودتهما وكانا ينطقان بلغة لا انا اعرفها ولا هما ... ورافقهما بقية الرفاق بعفوية مدهشة !

ها هي ظلمة التابوت تحوطني ... السكينة والسلام والصمت والعودة الى الرحم الاصلي الحنون ... عبر الخشب السميك للتابوت تأتيني أصواتهم أغنية حب بدائية خافتة لقبيلة تبكي مصرع محاربها العتيق ... تهدأ النار المشتعلة في جرحي الكاذب الاندمال ...

يوم سقطت الضفة الغربية ، وعرفت انني لن ارى بعد اليوم اطلال داري ومدرستي وقبر أمي التهبت النار في جرحي العتيق ... ظننت أنني أصبت بحرق جديد ، كشفت الثياب عن صدري وكان الجلد المندمل يبدو من الخارج مطفأ ... وأدركت أن النار لم تنطفىء قط منذ التهبت في المرة الاولى عام ١٩٦٥ . وكل ما في الامر انها انتقلت الى ما تحت الجلد وظلت هناك .. لسبب اجهله تكف النار عن تعذيبي وانا ميتة هكذا في التابوت ... هذه الجثة المسجاة تحتي داخل التابوت بدأت أشعر بصداقة تنعقد بيننا ... صداقة غامضة وبلا كلمات كصداقة التوأم داخل الرحم ... كم هو رائع ونقي السيد الموت ! بذراعه السرية يطفىء الحروق كلها ، وينفي الاحزان والذكريات الى أرض النسيان الأبدي ... احتضني ايها

السيد العظيم ... خذني ... امتلكني كعشيق مطلق ... امتلكني حتى القتل ..
ولكنهم كشفوا عني غطاء التابوت فجأة ... كم هو مفجع ان تنتهي المسرحية ، حين تصير المسرحية الليلية حياتنا ، ويصير ما تبقى من أيامنا مسرحية مهزوزة الادوار يتلو كل فيها سطوراً ليست له ولا يدري لماذا يقرأها ولا يفهمها .. والجمهور يصفق على أية حال ..

يصرخ بي جاد : هل أنت بخير يا نوف ؟ ..

ومن منا بخير؟ ..

أغادر التابوت .. وتبدأ الجولة بين القبور ..

والقبور كالناس .. بعضها كبير .. بعضها متعجرف .. بعضها صغير ومنزو .. بعضها يتصدر المكان وينعزل .. وشاهدت قبراً ترابياً فقيراً .. تحسست ترابه في الظلام .. كان هنالك شيء ما مدفون في احشائه ... نبشت التراب قليلاً فوجدت صليباً نحاسياً صدئاً .. اعطيته للباهي وطلبت منه ان يحتفظ به تذكاراً لليالينا الوثنية .. سرغون بدأ يقفز من قبر الى آخر كطفل .. جاد إحتضن شاهدة أحد القبور ونام فوقه .. ابو رعد دخل الهيكل . الباهي وانا اقتربنا من المدفن الخاص - القبو ، نحاول الدخول اليه وكان مقفلاً كالليلة الماضية ، ومع ذلك خيل الينا ان اصواتاً تنبعث من الداخل .. ولم نجرؤ على أن نقول ذلك لبقية الرفاق كي لا يسخروا منا ..

وليلة بعد ليلة بعد ليلة كنا نقسم اننا لن نعود الى المقبرة .. وكنا كل ليلة نضيق بكل ما حولنا من مقابر فكرية وسياسية ومسرحيات وطنية ومزايدات على الهزيمة التي صار اسمها الرسمي نكسة ، وكنا لا نملك الا ان نذهب بعد منتصف الليل الى المقبرة ..

ويوماً بعد يوم زاد رفاق المقبرة .. وتكاثروا .. والباهي بدل مكان اقامته وانتقل الى فندق رخيص وبدأ مرحلة تقشف شديدة كي يطيل اقامته قرب المقبرة ما أمكن ..

بالنسبة الي كان أهم ما في طقوس المقبرة ان اتمدد داخل التابوت ..

كان ذلك علاجي الوحيد .. وكففت عن التردد على ذلك الصيدلي الفقير الذي كان يحقنني سراً بأبر المورفين داخل الوريد ليخفف عني آلام الحرق الذي لا يعترف الطب بآلامه ..

على بناء ملاصق للصيدلية لافتة تقول (أيها المتعبون تعالوا الي وأنا أريحكم) كنت أمر بها واتجاوزها لادخل الى الصيدلية .. مرة صدقت اللافتة ودخلت . استقبلتني عانس كهلة وزودتني بمجموعة من الكتب وطلبت مني ان أعود مساء للاستماع الى محاضرة .. وعدت مساء وحقن رجل – يبدو انه مصاب بالتخمة وعسر الهضم – الحضور بحقنة تخدير دينية سرت في أوصال الحاضرين وبدا أن نفسهم هدأت .. هربت من المكان الى الصيدلية الملاصقة فأنا شخصياً افضل الافيون الآخر .. منذ اكتشفت المقبرة كففت عن زياراتي الليلية الى الصيدلية وبدأت الثقوب الزرق في شراييني تشفى) ..

ما زلت جالسة في حضن الارض والشجرة الكبيرة تخفيني بظلها ... الحارس – ام تراه يأنس بالمقبرة مثلي – يحمل زجاجة العرق ويدور بها ... ألحظ انه يتجنب الزوايا المظلمة .. اذن هو مرغم على البقاء هنا ... تراه بلا مأوى ؟... المطر كف عن الهطول .. رائحة التراب تفوح منعشة وندية وبريئة كضحكاتنا في المقبرة ايام انتقلت سهراتنا من المقهى اليها ...

(جلس سرغون قرب احد القبور وقال انه جائع .. قلت له لماذا لا تأكل الحشائش والنباتات النامية على القبور وانت الذي تنادي في اشعارك بأن يكون الانسان نباتياً ؟ ..

وبكل بساطة بدأ يقطف نباتاً عن أحد القبور ويلتهمه .. قلت له : ربما كانت جذور هذه النبتة داخل جمجمة (الفقيد) المدفون هنا ، ولعل افكاره المسممة ملأت النبتة بالسم ..

وضحكنا ..

وبعد قليل كففنا عن الضحك حين بدأ سرغون يتلوى ألماً .. وذهبنا

به الى المستشفى .. وقال لنا الطبيب انه مصاب بالتسمم وبحاجة الى غسيل معدة ..

لقد اعتبرنا الامر نكتة حزيرانية مدهشة !)

بلى ... كانت ليالينا لا تخلو من الضحك الباكي ... كأننا كنا نرتد الى طفولتنا الراحلة مع الزمن ، ونصير حفنة من الاولاد الاشقياء الذين هربوا من مسؤولياتهم ليلعبوا في المقبرة ...

(أصر نادر على أن يرافقنا ، بعد ان انتشر أمر سهراتنا في المقبرة .. كان شاعراً تتحدث قصائده عن الوغى والموت وصهيل الخيول في المعارك ورائحة الدماء .. كان عنترة المقهى وكنا نلقبه بعنتر ..

ما كدنا نصل الى مدخل المقبرة ونسير فيها خطوات حتى تركنا وانطلق هارباً ..

في اليوم التالي عيّره بعض الرفاق بجبنه . فنفى ذلك وقال انه تذكر موعداً هاماً ولذا تركنا ومضى . وتحداه ابو رعد بأن يذهب وحده الى المقبرة في منتصف الليل ويدق مسماراً في الشجرة الكبيرة الملاصقة للقبر الخامس الى اليمين بعد المدخل .. وقبل عنتر التحدي .. وجلب أبو رعد مطرقة ومسماراً دهن طرفه بطلاء اظافر اخته الأحمر واعطيناه اياه وتركناه يمضي .. وطلبنا من « ابو رعد » ان يتعقبه ..

وبعد نصف ساعة عاد ابو رعد وهو مصاب بنوبة ضحك هستيرية ..

قال انه لحق بعنتر فوجده داخل المقبرة امام الشجرة يصرخ : خلصوني من الأرواح .. قولوا لها ان تتركني .. لقد قيدتني الى الشجرة ...

وبدا له ان عنترة مقيد فعلاً الى الشجرة لا يستطيع منها فكاكاً ... وتقدم منه فوجده قد دق المسمار في الشجرة ، وفي غمرة رعبه دق مع المسمار طرف سترته ! ... ولكن عنترة نفى الحكاية ... وقال ان ابو رعد يشنع عليه .. المهم اننا أضعنا ليلة ، وتلهينا عن المأساة ...)

ولكن اللهو لم يطل ... وها انا وحدي .. لقد مضى رفاق المقبرة

جميعاً وبقيت وحدي اجيء كل ليلة استبدل فراشي بالتابوت لانام ملء جفوني ثم انسل من المقبرة مع الفجر هادئة لاذهب الى عملي ... اجل .. ذهب رفاق المقبرة .. هربوا ... بعضهم قدم التنازلات المطلوبة وأعاد انضمامه الى المقبرة الكبرى في الخارج .. وبعضهم استطاع ان يستعيد توازنه بعد محرقة الهزيمة ويخرج منها كطائر الفينيق المتجدد ابداً بعد احتراقه ... وبعضهم خاف امام لعبة الموت ... سرغون سافر الى اميركا ... جاد اضطر الى قبول عمل ليلي في الكازينو لانه جائع ... عنترة تم تعيينه مسؤولاً كبيراً في الاعلام ... ابو رعد سئم المسرحية كما يقول لكنه استبدل المقبرة بالخمارة، وبراقصة اجنبية في الكازينو تعيله ... حتى الباهي قرر الرحيل منذ شهر وكل ليلة حينما يجيء يفاجئني بأنه لم يرحل بعد ..

(منذ شهر كانت ليلة مقمرة من ليالي آب المسحورة ... لم يأت أحد من رفاق المقبرة ... ذهبت وحدي والباهي وكانت الثانية عشرة تماماً ... افتقدنا ليلتها الحارس الذي تغيب .. دخلنا الى المقبرة ورغم اني كنت قد حفظت كل معالمها، واستطيع السير فيها مغمضة العينين الا اني تعثرت وسقطت من قدمي فردة حذائي ... قال لي: يا سندريللا الحزينة ... يا صغيرتي ... يا سندريللا الهزيمة ... وضمني اليه ... ثم افلتني فجأة.

ركضت الى التابوت ... دوماً انا في لهفة للتمدد داخله ... لا ادري لماذا احسست بحاجة للعودة الى رحم الموت عارية، كلحظة قذف بي الى الحياة ... نجيء الى هذه الدنيا عراة، فلماذا لا نركض عنها كما جئنا؟ .. وبدأت اخلع ثيابي كلها بصمت ثم تمددت داخل التابوت عارية .. ومددت يدي الى الباهي مشيرة اليه كي ينام معي داخله ...

لم يفعل ... حملني .. مددني فوق قبر رخامي كبير، وأحسستني في ضوء القمر مثل ذبيحة تقدم لاله النسيان ... قدمنا له كل ما نعرفه وكل ما في جسدنا من طاقة على الابحار الى عوالم النسيان المطلق ... وكنت كلما تذكرت أن في القبر تحتي رجلاً لن يتحرك بعد الآن ازداد تمسكاً

بالرجل الآخر المليء بالحياة والحركة ، والذي يغطيني كما السماء تغطي الشواطىء النائية وتطبق عليها ليلاً ... وفي غمرة ابحارنا بقارب الجسد الى ارض النسيان سمعنا تلك الهمهمات الليلية ووقع خطى رجال حذرين ، لكننا بعد ان نهضنا وارتدينا ثيابنا لم نجد أحداً ...

قال لي الباهي مرتاعاً : انت جنية الموت وكاهنة النسيان ... تخيفيني ...

ـ لماذا ؟ ...

ـ انك مثل عرائس البحر ، تغنين للملاحين المتعبين الوحيدين وتقودينهم الى حتفهم في مقابر مغاور أعماق البحار ... واخافك ...

ـ لماذا ؟

ـ اخاف ان احاول الهرب ذات يوم فاجدني مدقوقاً الى جانبك في التابوت بمسمار كمسمار عنترة الذي دق به ذاته دون ان يدري ... لا اريد ذلك ...

ـ لماذا ؟ ...

ـ لانني ما ازال اؤمن بأن شيئاً ما سينبت من المقبرة الحزيرانية الكبيرة ، ولانك صنعت لنفسك قارباً من اليأس وانزلته في نهر الموت وها انت تلوحين لنا بالوداع .. اريد ان انزل من قاربك ...

ـ لماذا ؟ ...

ـ لانه لا يمكن ان يكون هذا كل شيء .. لقد حاولت فك عقدة الصخرة التي تشدك الى اعماق مياه اليأس وها انا اكاد اغرق معك ... لا اريد ...

وكان جاداً في رغبته بالنزول من قاربي ، فقد هتف الي بعد ساعات الى مقر عملي يبلغني انه حزم حقائبه وانه في طريقه الى المطار .

لم احزن . فقط التهب جرحي وتأججت ناره تحت الجلد ...

لكنني ليلاً ذهبت الى المقبرة لاطفىء النار في التابوت ... وفي الثانية ليلاً جاءني ثملاً ممزقاً ولم يرحل ... قال انه سيرحل في الغد ... وجاء

الغد ولم يرحل ... كل صباح يودعني ، وكل ليلة يلاقيني الى فراشي في تابوتي بالمقبرة)....

تراه يحضر الليلة ؟... اليوم حينما هتف الي صباحاً ليودعني (كعادته !) كان في صوته شيء جديد ... نبرة جديدة اخافتني . اني انتظر منتصف الليل واظافري تحفر في التّراب كمن يدفن صبره الذي نفد ونفق منذ زمن طويل ... اسمعني اهمس كساحرة شريرة : سيجيء . لقد علق بصنارة جسدي وسيجيء ...

حارس المقبرة (أو ضيفها الآخر) يسمع همسي ويتلفت حوله في هلع ثم يذكر اسماء اوليائه وقديسيه بصوت عال ... ويعود الى زجاجة عرقه ليعب منها ... هيا ... نم ... ارجوك ان تنام ... فثيابي المبتلة ملأت عظامي بالبرد ... وعما قريب لن أتمالك نفسي من السعال وسأخيفك اكثر ... اريد ان اخلع ثيابي واتركها تجف قرب التابوت وارقد في داخله لانام باكراً الليلة لانني متعبة .. اجل . هكذا . تمدد على الارض ولف سيجارة حشيشك.. عظيم .. لن يطول انتظاري اذن وستنام بعد قليل ...

الباهي ، تراه ذهب ابداً ابداً ؟.. وهل من الضروري ان نفقد الاشياء لنعي مدى تعلقنا بها ؟..

اذا رحل ، سيعود الليل وحشاً ، والنهار مالحاً .. ها انا اتذكره كما هو خارج اطار عالمي ومقبرتي ... انه صامت ، وجادّ ، وعاشق لعمله ... تذكرت معرضه ، تواضعه ورؤياه الثاقبة .. لو لم اكن امرأة ميتة للحقت به الى آخر الارض ... ولكن ...

ارفع رأسي وانا اسمع صرير باب مدخل المدفن تحت الارض ووقع خطى تهبط على الدرج ... لا ريب في انني واهمة .. ها قد نام الحارس اخيراً ... يا له من انتظار طويل طويل ... لقد هاجمتني عذاباتي كلها طيلة ساعات الانتظار هذه ، وانطلقت خفافيش ذكرياتي من دهاليزها ...

فلأذهب لاتمدد في التابوت ، ولأمثل مسرحية الموت وحدي بلا متفرجين

ولا مصفقين ، وبدون مشاركة بقية الممثلين ..

ها انا اخيراً امام التابوت . الباهي لم يجيء . شيء في داخلي يقول لي انه لن يجيء ...

اسحب عن التابوت غطاءه بكل هدوء ... اتسلقه كما اتسلق فراشي .. الظلمة في هـذا الركن دامسة ، لكنني صرت كالاعمى الـذي يعرف طريقه جيداً في منزله ... اتمدد داخل التابوت واحس بشيء صلب تحتي كأنه حقيبة ...

انهض من جديد ... استخرجها وامضي بها الى الهيكل . في النور المنبعث من الكوة المستديرة كالشمس السرية الزرقاء لهذه المملكة افتح الحقيبة وأفاجأ ببعض الرسوم واللوحات ... اميز فيها فوراً اسلوب الباهي في الرسم ... اتأملها واحدة بعد الاخرى واحاول ان افهم ماذا يريد الباهي ان يقول لي بوداعه ... واذا كان معرضه الذي افتتح يوم الخامس من حزيران يحمل نبوءة بالهزيمة ، فما هي نبوءته الجديدة !...

اللوحات تمثل المقبرة ... مقبرة شاسعة لا حدود لها تمتد على طول قارتين .. ها هي امرأة جذورها في المقبرة ورأسها في الغمام ... جسدها من رماد ورأسها من فولاذ ... لوحة اخرى ... الموت جذع في الارض ، ومنه ينبت ظل منتصب بجلال ومهابة وشراسة ....

يخيل الي انني فهمت ...

حسناً حسناً فهمت ما يريد ان يقول لكنني لا اصدق ... ومع ذلك بي رغبة للخروج الى النور ، الى مكان استطيع ان اتأمل رسائله — اللوحات جيداً ، وافهم نبوءته انا المؤمنة به ...

احمل الحقيبة وامضي بها وانا اخرج من المقبرة واشعر انني قد لا اعود اليها ثانية .. على اقدامي ...

أمر بالمدفن تحت الارض ، المقفل الباب ابداً ، واسمع تحت الارض اصوات رجال .. لا يمكن ان اكون حالمة او واهمة .. اني واثقة من سماعي

لاصوات رجال ...

أحاول فتح الباب الحديدي الصدىء لكنني ألحظ ان سلسلة قد دارت حول اسياخه وثبت بها قفل بدا لي في الظلمة انه جديد ... تأملت مدخل الدرج الهابط الى المدفن وخيل الي أنني المح ظلال مشاعل او شموع في الداخل ... انصت وقد ارهف هذا الخوف المستمر في الظلمة سمعي ... تناهت الي اصداء عبارات متقطعة مثل : عملنا السري .. التحرير .. الارض .. الفداء ... التنظيم ... الرفاق ... العنف .. العملاء ...

ثم تفجر المطر من جديد ، ولم اعد اسمع سوى همهمات غير مفهومة مثل نغمة نائية لكنني وعيت ايقاعها المليء بالقوة والعنف والشراسة ...

وبدأت ابكي ...

كيف افتح الباب بيني وبينهم ...

صرت ابكي ...

هل يمكن ان يدور هذا حقاً ؟

هل تحققت نبوءة الباهي الثانية بهذا السرعة ؟ لا اصدق ... لا اصدق ... يجب ان اراهم ...

الباب موصد ... والسماء عادت تمطر بجنون ... يجب ان اتأكد على الاقل من وجودهم ... لا اؤمن بالمعجزات والنبوءات وحدها .. رغم الاصوات الضاجة بالحياة المقبلة من قاع المدفن والاشباح الداخلين والخارجين الذين كنا نلمحهم احياناً ونظن أنفسنا واهمين ... هل يمكن ان يكونوا هنا طوال الصيف تحت جذور القبور والموت يخططون للحياة بينما نحن نقفز بين القبور ونتخدر عن مآسينا ونركض بين المقاهي... هل استعادوا وعيهم بهذه السرعة .. هل اصدق ؟... ام تراني أحلم تحت سطوة لوحات الباهي ونبوءته المضيئة ؟...

انها تمطر بجنون ... لماذا لا اتأكد من وجودهم عبر آثار اقدامهم ؟ كانت الارض موحلة لما دخلوا ، ولا ريب في انهم خلفوا آثار اقدامهم على

التراب ان كانوا قد دخلوا حقاً ...

اركض الى الممر ... أتأمل التراب بحثاً عن آثار .. أجد المطر قد غسل كل شيء وعاد الوحل كما كان متكتماً وسرياً مثل صفائح آجر عليها نقوش بلغة مجهولة ...

اغادر المقبرة وانا اشد على حقيبة اللوحات ... واحس بأن النار المشتعلة أبداً تحت قناع جلدي المندمل قد هدأت .. واستنشق الهواء البحري بملء صدري ولا اشم تلك الرائحة .

غداً لن أنام في التابوت ...

الساعة ١,١٠ ليلة ١١–١٠–١٩٧٢

نشرت هذه القصة للمرة الاولى تحت عنوان :

« رفاق المقبرة »

جريمة شرف

ليس من عادته ان يتضايق اذا تجاوزه أحد بسيارته ، لكنه اليوم كان يثور لذلك ، ويفتل شاربيه ، ويسابق السيارات كلها .. بل انه سمح لنفسه بتجاوزات اخرى ، فقد أدار زر المذياع وهو أمر لم يسبق لـــه ان تجرأ عليه منذ عمل سائقاً لدى نظوم بك الحسباوي .. لكنه بينما كان يبتاع لسيدته (الجاتوه) ، الخاص بالريجيم ، الذي تأكله بدلاً من الخبز ، سمع ان هناك تحركات اسرائيلية عدوانية على قرى الجنوب ، وعلى قريته عيترون بالذات ..

وصل الى القصر ، واعطى (الجاتوه) للخادمة التي قالت له بسرعة :

« الست تريدك . اصعد الى غرفة نومها » ..

صار يعرف الطريق جيداً ، « فالست » دوماً في غرفة نومها ، بالضبط في فراشها ...

بسمل وحوقل ولعن الشيطان وخزاه ، وتسلق الدرج الرخامي الطويل ...

عـــلى طرفي الدرج في قمته تمثال رخامي لامرأة عاريـــة تماماً **(لماذا يتركونها عارية هكذا ؟ انا مستعد لشراء ثوب لها من راتبي ، وفي الليل سأتسلل وأدثرها به فهي تشبه زوجتي تغريد أم علي ... كأنهم نصبوا هذا التمثال هنا خصيصاً لاغاظتي ... كل ما في هذا القصر كأنه وجد أصلاً لاغاظتي) ...**

ها هو امام الباب المبطن بالمخمل الارجواني ...

يدق الباب دون ان يدري ان قرعاته لن تسمع ، فالغرفة عازلة للصوت .

(هذه « الحرمة » دوماً مطروحة على سريرها مثل بدوية اجهضت للتو) ..

يدخل ...

ها هي الست « فيردالونا » في الفراش المبطن بالمخمل ، المغطى «بالساتان» الوردي ... الجدران ايضاً وردية ... والسقف ينسدل منه الساتان بصورة خيمة ... خيمة من الساتان ... ها ... (ماذا يعرفون عن الخيام ؟ ... كنا ننصب الخيمة وسط الحقل ، وننتشر فيــه انا واولادي السبعة نقطف التبغ ... مرة عدت الى الخيمة لاحضر لهم بعض الماء ... ابني عــلي كان قــد تمدد ليستريح قليلاً ، وبين الفراش الممدود عــلى الارض وقماشه الخيمة كانت « أم اربع واربعين » ضخمة ... أمسكت بها بين أصابعي وفركتها ... هاهي « أم اربع واربعــين سنة » مدام « فيردالونا » ممددة امامي في الفراش ، وشاربي يرتجف امامها ، ولا اجرؤ على ان أمد يدي فأفركها بعضاً من اللحم المعجون بالدم والشعر الاصطناعي والرموش المستعارة وانتهي من أوامرها) ...

الستائر مسدلة كأن الوقت ما زال ليلاً ... (اشتهي ان اقول لها مرة صباح الخير ولا اجرؤ . وقتها دوماً ليل) .

لو دخلت الى الغرفة ذبابة لتحركت المدام « فيردالونا » في فراشها أكثر مما فعلت حين دخل ابو علي ... ظلت كما هي ... ممدة في ثوب نوم بنفسجي شفاف ، انكشف بعضه عن ساقين بيضاوين زرقاوين كما الجثث بعد ساعة من الوفاة ... مترهلتين رغم اصابع (الماسور) توتو الذي يحضر كل يوم ويغرس اصابعه في لحمها العتيق كعجينة بلا خميرة ، وعبثاً يصلح (المساج) والتدليك ما أفسد الدهر ... ويتظاهر خلف نظارتيه السوداوين بأنه اعمى ... يختبيء خلفهما كما يختبيء خلف اسم الدلع (توتو) كي لا يعرفوا انه هو توفيق ابن المشلول مصطفى جاسر ، الذي أصيب برصاصة منذ ٢٥ سنة استقرت في عموده الفقري بينما كان ينادي : « يا مستعمر اطلع بره » ... ومن يومها خرج الحكم الاجنبي وبدأ حكم الجوع في بيتهم بعد ان فقد رب الاسرة قدرته على العمل ونسيه الجميع في غمرة اعياد الاستقلال .

كل ما فعلته المدام « فيردالونا » حين دمدم ابو علي (احم احم) للمرة

الخامسة ، انها فتحت جفنيها كمن عاد من اغماءة طويلة وتأملته بعينين دامعتين .. وعادت تنثني فوق الجسد الذي احتضنته وتنوح بعربية مكسرة : يا خبيبي يا ببوش ... وتطلعت الى ابو علي بعينين ساح كحلهما وسال في أوديـة التجاعيد ، وبصوت ملهوف ناحت ثكلى : انه مريض (مالاد) ... حرام ... والليلة الحفلة ... بعد قليل يجيء الحلاق والمانيكورست ... وهو مريض ... يا خبيبي يا ببوش ...

واضطر ابو علي الى ان يقول لها : سلامة قلبه ... لكنه أحس بشاربيه ينكسان الى الاسفل مثل الرايات المهزومة **(شواربك يا بو علي لو وقف عليها الصقر لما اهتزت ... كان ذلك ايام زمان ... آه)** ... سلامته يا مدام ، سلامة قلبه ياست !

وهنا لاحظ السيد « ببوش » دخول ابو علي ، وانتفض من بين يدي « فيردالونا » وبدأ يعوي بكل شراسة ... ذلك الكلب اللئيم الغنوج .. لماذا كره ابو علي من أول نظرة ... ابو علي يعرف انه كرهه من اول نظرة **(في ضيعتي عيترون كل كلاب القرية تحبني ... وتميزني ... انها هناك خشنة ، صوتها كصوت الذئاب ، وفيها رجولة ... فحلة وشجاعة وتهز بذنبها بمودة وبلا تزلف ... كل شيء في هذه الفيللا مختلف ... حتى الكلاب ... لا البشر بشر ولا الكلاب كلاب)** منذ النظرة الاولى الى ببوش احس بو علي ان وجود احدهما يتهدد وجود الآخر ... وهو لن ينسى ذلك اليوم أبداً ... **(هبط نظوم بك الحسباوي من سيارته الكاديلاك امبيريال التي اقودها امام المدخل الرئيسي للقصر ... واشار الى الباب الخلفي في الحديقة وقال لي : اذهب يا بو علي الى المطبخ وكل ، وبعد الغداء اقدمك لزوجتي ، مدام فيردالونا ... كنت جائعاً ... لم اتناول لقمة منذ وصلت من عيترون ... أي منذ ايام ثلاثة صعبة ... كنت متخماً بالقهر والقهر والقهر ... أجل ! القهر هو الكلمة ..**

دخلت من باب المطبخ ودون ان يلتفت الي الطباخ الفرنسي أشار

الى صحن الطعام على المنضدة ... كان كل شيء منظماً ، ولم يقل لي احد تفضل أو « عوافي » أو « صحتين » ولكنني كنت جائعاً مثل ثعلب الكروم ...

وهجمت على صحني ، وفجأة سمعت صوت زمجرة ... ورأيته ... رأيت ببوش ...

كان يرتدي قميصاً من الحرير مرقطاً بالابيض والاحمر له « كشاكش ودانتيل » مثل الفستان الذي شاهدت ابنتي « خضرا » ترتديه وهجم عليها يومئذ شقيقها علي ومزقه لانه فاضح الالوان ومثل ثياب بنات بيروت ... زمجر ببوش حينما شاهدني أدفع الى حلقي بأول لقمة ... كان بقية الخدم من ايطاليين وفرنسيين يأكلون ... ولم يضايق الكلب ذلك ... لماذا ضايقته لقمتي ؟ ... ثم انه كان امامه صحن هائل مليء باللحم ، فلماذا تضايقه لقيماتي المغمسة بالعرق الذي بدأ يهطل من جبيني داخل الصحن بينما بدأ بقية الخدم بالضحك ؟ ...

التقت نظراتنا ... كانت هنالك شريطة وردية معقودة على ذنبه ... وكان في عينيه ما يشبه الخوف مني ... والحقد ... كثير من الحقد ... كثير من الحقد كذلك الذي أطل من وجوه الجنود الاسرائيليين وهم يزرعون المتفجرات في جذور بيتي ... الحقد والخوف ... كان ناعماً ... تفوح من شعره اللامع المصفف رائحة العطر ... وكانت يداي خشنتين وجلدهما قاسياً كجلد سلحفاة عمرها الف عام ، وأظافري طويلة ومحدبة لا كاظافره التي لاحظت بذهول انها مدهونة بطلاء احمر ... وكان بيننا عداء سري ...

وبدأ يعوي وكف عن الأكل ...

وتقلصت اصابعي واظافري ، وصارت لقمتي معجونة بالملح والكلس .

وظل يعوي ، وغصصت باللقمة ... ثم دخلت امرأة اربعينية ، فنهض الخدم جميعاً وكفوا عن الاكل ومثلهم فعلت ، وركض اليها الكلب اللئيم

وكأنه يشكوني اليها وهي تحتضنه وتحدثه بلغة اجنبية لم افهمها ... ثم لحق بها البيك وطلب منها العودة الى الطعام لان ضيوفه مهمون والصفقة يجب ان تتم ، ومن الضروري ارضاؤهم ... وخرجت « الست » غاضبة بعد ان رمقتني بنظرات سامة احسستها مثل كأس من الديمول تنصب في صحني ... مثل الديمول الذي شربته (حكيمة) ابنة جاري لان والدها رفض ان يزوجها شاباً من الفدائيين ما دام عاجزاً عن دفع مهرها بقرة وثلاثة ثيران ...

وفتلت شاربي ، وصرت اردد بصمت : انا ابو علي الضرغام ... انا ابو علي الضرغام ... وهذا كلب ابن كلب ابن كلبة اجنبية ...

وظل طعم الديمول في الطعام ... ونهضت وأنا أحس بأن فتل شاربي لم يعد يجدي ... وخرجت الى الحديقة ودخنت سيجارة لف ، لففت داخلها بقايا آخر محصول من دخان أرضي ، وبدأت ابكي كالنساء . عيب) ..

ازداد عواء ببوش حينما شاهد ابو علي الضرغام يقف بحذائه القذر فوق السجادة (الموكيت) البيضاء ذات الريش الطويل في غرفة النوم ذات الجدران المخملية الارجوانية كعلب المجوهرات ...

وقالت السيدة فيردالونا : الليلة حفلة انتخاب ملك جمال الكلاب ... وكلبي طبعاً أجمل كلب . ولكنه كما ترى مريض ... مريض ... خذه الى دكتوره مسيو فراشيخ ... وحين أنتهي من (المساج) سألحق بكما ...

حمل الكلب اللئيم كما كان يحمل الكلاب في ضيعته ... لكن مدام فيردالونا أنبته بنظرة شرسة ... ففهم ... واحتضنه كما يحتضن الاطفال المرضى ، فخرج به من الغرفة وهبط الدرج وقد سقط شارباه الى الاسفل (بين ذراعي احتضنت ابنتي هكذا . كنا نقطف التبغ ... وكان الليل منعشاً والسماء تضيء كأول فجر بعد الطوفان ... حدث الامر بسرعة ... اضواء كشافة ورصاص ، زخات رصاص ثم انطفأ كل شيء الا صراخ ابنتي

« خضراء » ... ركضت اليها ، كانت تنزف مثل طائر نادر صرعه الصيادون للتو ... حملتها وركضت بها الى القرية ... خاف سائق التاكسي الوحيد في القرية وقال ان الاسرائيليين اعتادوا مع كل غارة ان يطيروا فوق الطرقات ايضاً لقذف السيارات بقنابل محرقة ... فذكرته بالنخوة وبأيام الشباب ، ايام كنا نذهب الى بيروت لسهر الليالي ... ذكرته بانه كان رفيقي يوم التقيت زوجتي الاولى الساحرة أم علي وكان اسمها في الملهى تغريد ... وكيف انه كان شاهد زواجنا ... وكيف وقف معي وشجعني على اختطافها من البيك الذي كان يستغلها والذي نجهل اسمه ... وقبل دعدس حدرج السائق وحملني وابنتي الى مستشفى صيدا ...

ابني علي لم يحزن من أجلها ... قال انها تستحق الرصاصات الثلاث في بطنها ، فهي قد تكون حاملاً من جول صالح ، الفلسطيني الذي لم استطع ان أمنعه من الالتجاء الى بيتي – المنسوف – كلما شاء – قبل أن ينسف البيت – ... وقال ابني علي ابن تغريد انني احابي « الفدائية » لان زوجتي الثانية إمتثال فلسطينية من عكا وتربطها بجول قرابة بعيدة ... وعبثاً حاولت اقناعه بأن امتثال امرأة طيبة وبنت حلال والا لما قبلت بأن تكنى بأم علي نسبة اليه ... وبان أمه الست تغريد ، التي حميتها من البيك ، وتزوجت منها ، ونقلتها من حي الزيتونة (والكاباريهات) بعد أول ليلة سهرت فيها هناك مع دعدس حدرج ... أمه كانت نصف مجنونة بعد الزواج ... ضاقت ببساتين التبغ ، ورائحة الارض ، وملء الجرة من النبع ، وقررت أن تعود الى الزيتونة ، وان تجهض الطفل – علي – الذي نبت في أحشائها ، والذي صارت تجد فيه المانع الوحيد بينها وبين العودة الى الزيتونة والبيك والكسل ... ولم أقل له إنها بعد ان ولدته أصيبت بنوبات جنون كادت تقتله في واحدة منها لو لم أخلصه ، واركض به الى المختار اطلب العون ، وحين عدنا ، وجدناها تقفز بين بساتين التبغ كتلة من اللحم المحروق والعويل ورائحة الكاز الذي سكبته على نفسها منتحرة ...

لم أقل له هذا كله حينما كان يصب نقمته على زوجتي الفلسطينية امثال وقريبها جول ... لم أقل له شيئاً ... كنت اعتقد انه لا بد وان يفهم وحده ذات يوم ... ثم انه ابني البكر ، علي ، حبيبي ، ولم اتصور قط انه سيصب حقده على شقيقته « خضراء » ، حتى وانا احملها بين ذراعي مثل عنزة مكسورة الساقين صرخ بي ، ولن انسى صوته : اتركها تموت ... اتركها تموت هنا في الحقل ... سيراها الاسرائيليون ويكفون عن هجماتهم فهم بلا ريب يعرفون انها عشيقة جول الفدائي ... وعويت به : ولكنهم لا يريدون دمها ... يريدون الارض ... يريدون أرضي وبلغي وبيتي ... هذا هو شرفي ... وتمتم علي ابني وابن تغريد : المهم شرف البنت ! .. تراه يحاول ان ينتقم من أمه في شخص شقيقته ؟ .. أم تراها لعنة السماء لذلك الزواج المشؤوم من تغريد ؟ .. تركته يكسر العصان النبع التي يختبىء بينها في الظلام ، وظللت اركض « بخضراء » وهي تنزف بين ذراعي) ..

الكلب بين ذراعيه يتأمله ويتململ بين ذراعيه كأنه يحتج على خشونتهما ، لكنه يركض به على السلم الى (الكاراج) ... يشعر برغبة هائلة في أن يعصره بين قبضتيه حتى يخنقه ، لكنه يكبت هذه الرغبة حين يتذكر اولاده الكثر الذين عاهد نفسه على ان يبقيهم في المدرسة بأي ثمن ... بأي ثمن كي لا يصيروا مثل ابنه البكر علي ... (ابني علي خرج من يدي ... يكره العمل بالتبــغ ويقول انه لا يشبع مــن جوع ويفضل العمل « بالحشيش » والاتجار به ... لقد كنت منذ البداية مشغولاً عنه بالشجار مع أمه تغريد ... ويوم لحق بي استاذ القرية قائلاً ان ابني علي صبي ذكي ، ومن الضروري بقاؤه في المدرسة ، ومن الضروري ان نتعاون على تعليمه و ... و ... كنت افتل شاربي والهف للخلاص من حديث الاستاذ كي الحق بتغريد الى بيروت بعد أن كثرت زياراتها وقال لي صاحبي سائق التاكسي دعدس حدرج انها عادت الى رؤية « البيك » الذي كان يتردد عليها ... وبين تغريد والبيك ضاع علي ، ولم يتعلم حتى « فك الحرف » ... اولادي

من امتثال يجب ان يتعلموا بأي ثمن) .. يرقى درجات السلم الى عيادة الدكتور فراشيخ ... ببوش يعوي بين ذراعيه ... العيادة أنيقة ومزينة بالزهور وبصور لكلاب سعيدة مرفهة ... كل شيء مغطى بالابيض والطبيب يعقم يديه قبل ان يحتضن الكلب بكل حنان بينما تسارع ممرضة لتساعده

(لم يأت احد لمساعدتي حينما دخلت الى المستشفى الحكومي وطفلتي « خضراء » تنزف بين ذراعي ... مر بنا الطبيب ورآها تنزف عبر ثيابها الممزقة الفقيرة وتركنا ننتظر ، وحينما حاولت الاحتجاج لدى الممرضة سألتني ان كنت أحمل اجرة المداواة والتطبيب ... ومددت « خضراء » على بلاط المستشفى القذر وركضت كالمجنون في ردهاتها) ...

بو علي يقف مذهولاً محزوناً ، يتأمل الممرضة تمسك ببوش برعاية . والطبيب يتحسسه وينصت الى دقات قلبه ويفتح فمه ويتأمل لسانه واسنانه ثم يقول بصوت جاد وخطير كأنه يكشف صيغة قنبلة هيدروجينية جديدة : اعصاب ببوش متعبة ، وهنالك خوف من اصابته بانهيار عصبي ... الامر خطير ويجب ان أبلغ المدام لان اعصابه بحاجة الى المعالجة ...

وأدار الدكتور فراشيخ ارقام هاتف مدام فيردالونا بأصابع شنجها الخطب الجلل ، وتحاور معها بلغة لم يفهمها بو علي وكان له وجه ضابط كبير يبلغ اركان حربه خطة هجوم سري صاعق ...

ثم التفت الى بو علي مؤنباً : — لماذا لم تخبرني بأن ببوش سيشترك في مباراة انتخاب اجمل كلب اليوم !...

ظل بو علي مذهولاً ... وتابع فراشيخ مؤنباً : كدت احقنه بعشرين ميليغرام من مسكن الفاليوم ، وأفوت عليه المباراة بسبب سكوتك .. شيء فظيع هذا الاهمال ... يعد ابرة ويقول للممرضة ان تضع فيهـا ٥ ميليغرام « فاليوم » ويردد بينما يحقنها للكلب بكل رعاية : شيء فظيع هذا الاهمال ...

(الاهمال ! ظللت اركض في أروقة المستشفى وأصرخ بحثاً عن طبيب ... ووجدت نفسي من جديد امام ابنتي وقد صحت من جراحها وها هي

تئن المأ وتقول : ارجوكم ... خدروني او اقتلوني ... فهذا الالم لا يطاق ... ساعات ظلت تبتهل كي نقتلها ولم تأت الابرة السحرية الا بعد ان وقعت اوراقاً لا اعرف مضمونها وان كنت اعرف ان لها علاقة برهن ارضي لدفع نفقات العلاج) ...

خفت عواء الكلب ، واسترخى بعد ان سرت الابرة في عروقه ...
قال الطبيب لبو علي بخشونة : يجب ان ينام نوماً عميقاً بلا ازعاج ... بعد ساعات سيصحو منتعشاً ... الليلة بعد الحفل ، اذا بدا عليه الإرهاق ، قل للست ان تتصل بي وسأحضر لاعطائه ابرة منومة ... قل لها ان صحته بخير والحمد لله ، كل ما في الامر ان التدريبات لحفل الانتخاب قد أرهقت أعصابه فيما يبدو ، فهو رقيق وحساس ... غداً نبدأ تطبيق معالجة أكثر صرامة ... المهم ان يتناول اليوم طعاماً خفيفاً .. سلامته ...

ولما لحظ ان بو علي يتأمل ما يدور مشدوهاً انتهره بخشونة : هل سمعت ؟. غداً صباحاً احضروه الي ... والآن عد به الى غرفته ...

حمله بو علي بين ذراعيه وخرج به من عيادة الطبيب ... **(عشرة اولاد ... لم احمل ايهم قط من ، أو ، الى عيادة الطبيب ... مات منهم ثلاثة وبقي سبعة ... كانوا يمرضون ، يلتهبون بالحمى ، تتحول بشرتهم الناعمة الى كثبان من الرمل المحرق ... ثم يهمدون فجأة ، ولكنني لم أملك قط من النقود ما يجعلني اجرؤ على ان اقرع باب الطبيب ، واجرة السيارة اليه ، فأقرب طبيب يبعد عني مسيرة ايام .. كل ما أملكه لا يكفي لسد رمق الافواه الجائعة المفتوحة التي تنتظرني كل مساء ... وحمل ايهم الى الطبيب يعني موت ما تبقى منهم جوعاً ...)**

رمى الكلب بخشونة في السيارة وانطلق بها الى القصر في « البرزة » .

فتح الكلب عينيه مؤنباً وعاد الى اغفاءته . فتل بو علي شاربيه لكنه أحس بهما بين يديه مثل صوف خروف ميت ...

« يا بو علي ... الست تريدك في غرفتها » ...

صعد اليها ... مر بالتمثال نفسه فأشاح عنه بوجهه . الست فيردالونا

غادرت فراشها ، وهذا معناه انها ستغادر الدار ...

على رأسها باروكة شقراء (**أجد صعوبة في التعرف الى هذه المرأة كل مرة .. تخيفني الرموش التي تلصقها حول عينيها ... تذكرني بسيقان العناكب السود ... صحيح انني لا أخاف من الافاعي لكنني أكره العناكب**) كانت قد فتحت خزانة بدا منها ما يكفي لفتح دكان بائع احذية ، وكانت تبدل حذاءها وتتوقف أمام المرآة ثم تعود لتبدله ... وهكذا ... وكعادتها لم تلتفت الى بو علي وانما تابعت حديثها مع حلاق ببوش الخاص الذي كان يعقد على ذنبه أشرطة حريرية ملونة بعد أن أنهى (الشامبو والسيشوار) وقالت : صحيح ان الحفلة هي لانتخاب اجمل كلب ، ولكن على صاحبته ان ترافقه في الاستعراض أمام لجنة المحكمين ... وأنت تعرف طبعاً أن لهيئة صاحب الكلب تأثيراً على لجنة التحكيم ...

وقال الكسندر الحلاق متملقاً : يكفي ظهورك ليحجب جمالك جمال كلاب الجميع !!...

ولاحظ ان المجاملة لم تكن كما قصدها ، فبدل الموضوع قائلاً : صحيح انهم جاؤوا بلجنة تحكيم من انكلترا ؟.

وردت فيردالونا : أوه ... طبعاً طبعاً ... خبراء من أوروبا لرفع مستوى هذه الحفلات ... هذا ضروري ...

انتهى الكسندر من تثبيت عقد ثمين في رقبة الكلب وهمهم : طبعاً طبعاً ضروري ...

وتابعت فيردالونا : ثم أننا نقوم بهذه الحفلات من أجل الاعمال الخيرية والفقراء ... اننا نضحي من أجلهم (**منذ جئت الى بيت هذه المرأة ، وأنا لا أسمعها تتحدث الا عن الاعمال الخيرية . تشتري الثياب وتتمايل بها في الحفلات وتقول إن ذلك لاجل الحفلات الخيرية ... تسيل الويسكي في حديقة القصر انهاراً ويتهاوى السكارى فوق حشائش الممرات وزهورها ، ثم يصدح الخطباء من الميكروفون وأسمعهم يقولون أشياء كثيرة لا أفهمها**

ويتردد اسم الاعمال الخيرية كثيراً ... ويتردد اسم الفقراء ... ونحن الفقراء نجهل حتى انهم يتاجرون بجوعنا لتخمتهم) .

الست « فيردالونا » تبدل حذاءها وهي تتابع : هذه هي الحفلة الخيرية العاشرة التي نقوم بها هذا العام لصالح الفقراء ... وكان آخرها حفل عرض أزياء ... وحفلة عشاء راقصة و «كوتبون» ويانصيب ... اننا نعمل كثيراً ... أوف ... تعب وارهاق من أجل الفقراء ...

(قال جول الصالح الفدائي قريب زوجتي امتثال : يا خضراء ، الجمعيات الخيرية في افضل حالاتها هي صمام لامتصاص نقمة الجماهير ... وبدت علينا جميعاً امارات عدم الفهم ... فقال وقد خص بكلماته ابنتي خضراء : الناس الذين كنت تشتغلين عندهم كخادمة ، هل يطبخون بطنجرة « بريستو » ؟ ... أجل ؟ حسناً ... اتذكرين صفارة الطنجرة وصمامها الذي يحول دون انفجارها كلما زاد الضغط داخلها بتفريغه للبخار المضغوط ؟ هذا ما تحاول أن تفعله بعض المؤسسات التي تسمي نفسها خيرية ... انها تعطي بعض الناس القليل كي لا يثوروا من أجل الكثير الذي يستحقونه ، أي انها تعطي البعض القليل كي تظل على ابتلاعها للكثير الذي هو أصلاً حق من حقوقهم ... ولما تأكد من اننا لم نفهم شيئاً قال باختصار : السيدات اللواتي مررن بكم اليوم دجالات جئن في نزهة الى الجنوب ومررن ببعض البيوت في طريقهن ... كل الوعود كاذبة ... هذه الارض ستضيع اذا لم نتعاون على انقاذها بالقوة ... لا الجمعيات الخيرية ستنقذ اولادكم ولا أحد سيتحرك ليدافع عن الارض اذا لم تفعلوا انتم ...

ابني عمر ، اكبر أولادي من امتثال كان قد عاد لتوه من مدرسته البعيدة ودخل وسمع الحوار فقال لجول : كفاك مواعظ ... اذا لم تنسف هذه الدار لن يفهم أحد شيئاً ...

ونسفت الدار ...

بعد انصراف سيدات الجمعية الخيرية من المقهى حيث أكلن وشربن وعدن بسياراتهن الفاخرة الى بيروت ، جاء الجنود الاسرائيليون في غارة من غاراتهم المعتادة ... أضاؤوا الانوار الكشافة . طلبوا بالمكبرات ان يخرج جميع سكان القرية من بيوتهم . خرجنا .. لاحظت ان ابنتي خضراء اختفت هي وجول ... عرفت انها ذهبت به ليختبىء في المغارة حيث كانت تلعب أيام صغرها ... المغارة المسكونة بجنية طيبة كما يقولون ... صارت المغارة اليوم ملجأ للفدائيين ... وقفنا صفاً طويلاً . نادوا على باسمي . كيف عرفوه ؟ بالعربية كانوا يتحدثون وقد زاد ذلك في خوفي . سألوني أين بيتي . أرشدتهم اليه بنظرات صامتة . كانوا يعرفونه فيما يبدو . قال لي أحدهم : سنكافئك على ايوائك للارهابيين والمخربين ...

وبسرعة ... زرعوا بعض الرزم قرب أساس بيتي ومدوا بعض الاسلاك وبعد دقائق كان البيت بأكمله يتطاير في الهواء ومعه تتطاير صور خمسين عاماً من حياتي فيه ...

وكنت أتأمله بذهول وصمت وقد سددت أذني عن ضجيج الانهيارات وأغلقت عيني بشدة ... لا أدري متى فتحتهما ولكن حين فعلت كان الجنود قد ذهبوا والصمت يحكم المكان الا من بعض الانتحاب الخافت حولي . وبحثت عن حذائي بين الانقاض ، فقد أدركت فجأة انني سأقضي بقية عمري راكضاً في الارض بلا حذاء) .

* * *

يا بو علي ... بسرعة ... احمل ببوش ... تأخرنا ... حمل بو علي ببوش ورغم ان وزنه لا يتجاوز كيلوات عدة الا أنه أحس بظهره ينوء وهو يهبط به الدرج الى السيارة ... أمام باب القصر انضمت اليهما عائشة زوجة جارهم محفوظ بك ، أو (شاشا) كما يلقبونها ... (اسم عائشة جميل ... لماذا ينادونها شاشا ؟ أول بنت أحببتها كان اسمها عائشة ، كانت ابنة المختار ومهرها خمس بقرات ... أذكر جيداً انني كنت

ألمحها ليالي قطاف التبغ مع والدي ، وأحلم بها كلما طارت يعسوبة من تلك الحشرات المضيئة الجميلة ، وكلما قطفت نبتة تبغ رددت اسمها ... عائشة عائشة . وأقطف وأنا أكرر اسمها كما لو انني ممسك بمسبحة من أصداف العالم كله ، ومع كل صدفة أكرر اسمها) ... في السيارة تمنى لو يطلبون اليه ادارة المذياع كي يستمع الى الاخبار ... انه قلق هذا اليوم ... خائف من احراق بقية المحصول ومن هجوم جديد على أراضيهم ... وعليه أن يدفع اقساط مدارس الاولاد **(بعد أن هدموا داري نصبت في موضعه خيمة ثم بيتاً من التنك وصرت لاجئاً في أرضي ... ذلك كله لا يهم . المهم ان يتابع الاولاد دراستهم ليفهموا كلام جول ومحمد ورفاقهم وليفهموا كل الكلام الذي لا أفهمه ... في الليل والنهار ، نتسلل الى أراضينا كالسارقين لنقطف بعضاً من جني موسمنا ... في العام الماضي زرعنا الارض ، وشقوا طريقهم في أرضي وأخذوا قسماً منها ، والمحصول الذي زرعته حصدته جراراتهم وجرافاتهم ... وما تبقى لنا من أرضنا صرنا نتسلل اليه لنسرق محصوله سرقة ... أشجار الزيتون ... والتين ... والتبغ ... أين أين أين ؟ .) ...**

قالت له الست فيردالونا : راديو من فضلك ...

فرح ... كانت نشرة الاخبار في أولها ... قالت بملل : قلت لك اذاعة بيروت الاجنبية، نريد أن نسمع موسيقى ... برنامج (توب أوف ذي بوب)...

وتدفقت الموسيقى المسعورة في السيارة وبدأت شاشا تقول بصوت تجهد ان يغطي الموسيقى .. كلبك « الكانيش ماكسي » سيربح حتماً .. منافسه الوحيد هو — « اليوركشاير الرمادي » الذي تملكه لينا ... والكلب « البوكسر » الذي اشتراه رورو مسعود من لندن مؤخراً ... ومعه شهادات أصل وفصل ...

ترد فيردالونا : لا أعتقد ذلك ... المنافس الوحيد لبوبوش هو البولدوغ البولندي الذي تملكه كوكيت عشور ... فصاحبته صديقة للانكليزي الذي جاؤوا به للجنة التحكيم ويقال ان بينهما علاقة منذ كانت هي عزباء وتدرس بلندن و ... و ...

واستحال حوارهما الى همس . وعرف بوعلي انهما تنهشان (عرض) صديقتها الحميمة الست (كوكيت) ... وعاد صوت فيردالونا : ببوش أجمل (بودل) في العالم وسيكون الرابح الوحيد ...

(اسرائيل هي الرابح الوحيد . قالها عمر بينما كان الشجار بين ابنه علي وجول خطيب شقيقته يتعالى ...

علي يرفض زواج شقيقته خضراء من جول . يقول لها إن الزواج من فدائي معناه الترمل القريب والفقر والتشرد ... وجول يقول له : ستصيرون جميعاً مشردين محكومين بالفداء وستصير زوجاتكم ارامل اذا لم تقفوا معنا لنحارب معاً ... ابني علي يعتقد أن جول ورفاقه هم سبب مصائب القرية وويلاتها ... امتثال زوجتي صرخت به : قبل أن يجيء جول ورفاقه كنا فقراء وتعساء ومهملين . لم يتبدل الشيء الكثير ، وانما عجل قدومهم بالاحداث التي كانت محتومة ...

أخرسها ابني علي : أنت فلسطينية وابنتك مثلك وجول قريبكم ولكم مصالح ...

وبدأ يشتمها ... ومن عينيها أطلت نظرة من يريد أن يدافع عن نفسه ... عرفت أنها ستذكره بأمه الراقصة تغريد ... لكنها سكتت اذ تدخل عمر بين علي الذي هجم على أخته يريد ضربها ، وجول الذي وقف مدافعاً . ليت عمر كان أكبر سناً .

ومضى جول وقال علي منتصراً : جول لا يريد حتى أن يتزوج . يريد أن يتسلى ببنات القرية مثل بقية رفاقه ... وكنت أكثر حزناً أو تعباً من أن أرد ... أنا المسؤول ... لو سمعت كلام أستاذ القرية لما كان « علي » هكذا ... لكنني كنت مشغولاً بمطاردة أمه في أزقة الزيتونة ... كانت تهرب الى عشيقها البيك من وقت لآخر ... لو باحت لي مرة باسمه لقتلته .. ولكن ...) .

ـ توقف يا بو علي ... ماذا دهاك ؟

ولاحظ انه تجاوز « نادي التكتكة » ولم يتوقف أمامه . صوت فيردالونا يتابع زجره : ماذا بك اليوم ... هل أنت مريض ؟

وبدأ الكلب بالنباح ... دوماً ينبح الكلب في وجهه حينما تؤنبه الست كأنه يشاركها تحقيره في وصلة من النباح ... يستنجد بو علي بشاربيه ويفتلهما ويخيل اليه أنهما صارا رماداً .

زحام امام باب النادي ... شرطة سير وسيارات فخمة ورجال وكلاب

(دخل الاسرائيليون القرية ومعهم كلاب مخيفة شرسة فانتظمنا في صف واحد ... كانت كلابهم كالذئاب الجائعة وكانت تمطر ، وبدأ اطفالي بالبكاء وحاولت فتل شاربي وشعرت للمرة الأولى بأنهما ماتا ، كنت فيما مضى أحس بهما شيئاً حياً ينبض وينتصب ، وشعرت أن شرايينهما تقطعت وأعصابهما قد شلت وأنهما انسدلا فوق فمي كجثث الطيور المصابة) ...

يا بو علي احمل ببوش . لا أريد له ان يتعب ... حذار من تخريب تصفيفة شعره ...

تتقدم الست فيردالونا الموكب مع شاشا وهو يسير خلفهما كأنه في جنازة هو المشيع فيها ، والممدد في تابوتها في آن واحد ... تتوقف أم ببوش (كما يحلو له أن يسميها حين يحدث زوجته امتثال عنها) مع بعض الصديقات ، ويسمع احداهن تقول إن الاسرائيليين يتابعون اعتداءهم على قرى الجنوب والحالة خطرة ...

ترد شاشا : ما لنا ولهم ؟... وتقول فيردالونا : المهم أننا بخير ...

(ولكن هل أشجار زيتوني بخير ؟ وأولادي ؟ وزوجتي ؟ وجول ورفاقه ؟ ... لا بد لي من الاعتراف بانني أحببتهم ... حينما يتحدثون يردون الروح لشاربي ... اذن يضربون الجنوب منذ الصباح ؟ ...

عيترون ، هل بقي فيها حجر على حجر ؟

وأطفالي ؟

وأشجار الزيتون ، أراها تحترق في الحقل مثل رجال راكضين في

المدى وقد اشتعلت النار في شعرهم ورؤوسهم ...

وغداً مع الصباح سيأتي رجال يحملون آلات التصوير ، ورجال آخرون ليتصوروا أمام أطلال بيوتنا كأنها خرائب بعلبك الاثرية ثم يختفي الجميع ونبدأ نحن بمطاردة مجلس قيل إن اسمه « مجلس الجيوب » أو « مجلس الجنوب » أو شيء من هذا القبيل ، ٢٥ الف ليرة قيمة التعويض الذي قيل اني استحقه ... والنتيجة ، ٣ آلاف ليرة دفعتها أقساطاً لاولادي لم أقبض بعدها قرشاً ثم اسكتني (بيك) مجلس الجنوب نظوم افندي الحسباوي واتخذ مني سائقاً ...

والارض هناك تحترق ... والرجال يموتون ... والرجال هنا يرقصون ... والكلاب تستحم وتتزين وتتأنق وتقام الحفلات على شرفها ... عجيب أمر هذه المدينة ... يبدو اني لم أعد قادراً على فهم شيء مما يدور فيها ... الليلة سأهرب من هنا ... سأعود إلى أرضي . سأسرق (الجفت) الذي يستعملونه للزينة في مكتبة البيت وأذهب به لادافع عن أرضي ... سأقتل كل من يقترب ... سأسرق البندقية — حتى البنادق يستعملونها في هذه المدينة للزينة — .

سأسرق وسأقتل أول اسرائيلي يدوس أرضي.. لماذا لا أقتل؟

ذات مرة كنت على استعداد لقتل البيك الذي كان ينفق على تغريد ... لو عرفته لقتلته يومها ... لماذا أنا قادر على القتل من أجل تغريد وعاجز عن القتل من أجل شجرة زيتون؟ ...)

ممنوع الدخول !...

قالتها امرأة نصف عارية تقف على باب ملعب « نادي التكتكة » .

« الكلاب وأصحابها فقط يدخلون من هنا . الخدم من الناحية الاخرى » .

وهنا وضع السيد ببوش أرضاً وترك ام ببوش تمسك به و تختال الى الداخل ، بينما توجه الى الطرف الآخر من الملعب حيث يقف سائقو السيارات والخدم والحاشية والوصيفات ...

كان البشر في هذا الملعب ينقسمون الى قسمين متواجهين ...

الكلاب وأهلها من جهة ، والحاشية من جهة أخرى ... وبينهما أرض الملعب ...

وكانت كل من الفئتين ترمق الاخرى بنظرات أقل ما فيها يدل على العجز عن التفاهم رغم أنه من المفروض انهم جميعاً يعرفون لغة واحدة مشتركة على الاقل ...

وفي أرض الملعب بدأ الاستعراض ...

كلاب ورجال ...

كلاب وسيدات ...

موسيقى ... ميكروفون ... أرقام ...

واخيراً الكلب الفائز

وبينما أحدهم يعلن على الميكروفون اسم ملك جمال الكلاب سمع الجميع دوياً هائلاً اذ مرت طائرة فوق الملعب وغطى صوت محركها على كل صوت آخر **(تراها قادمة للتوّ من عيترون بعد أن أحرقت كل ما فيها ؟ وأولادي ؟ وأشجاري)** ... ومرت الطائرة وأعلنت أسماء الكلاب الفائزة وتم تبادل القبلات بينها وبين أصحابها ولجان التحكيم ومنحت الكلاب المدللة الكئوس الذهبية والميداليات ، كل ذلك ومئات من أمثال بو علي واقفون مشدوهين يتأملون ما يدور بذهول ... حاول بو علي أن يفتل شاربيه فعجز عن ذلك كأن يديه قد شلتا ... ووجد نفسه بدلاً من ذلك يغطي عينيه بيديه بينما مرت طائرة أخرى لتحط في أرض المطار القريب **(أرى البيوت هناك تحترق بيتاً بيتاً ... وخيمتنا فوق أطلال البيوت تحترق ... وأطفالي يلتهبون بالنابالم ... وخضراء ... وامتثال .. وعلي ... ليت « علي » يحمل السلاح ... ليته يحمل السلاح ويقاتل)**

وبدأ بو علي يتلو صلاة صامتة ، يكرر بذهول : ليت « علي » يحمل السلاح ... طوال طريق العودة الى القصر ، ورغم نواح أم ببوش لان ببوش لم يفز بأية جائزة ، ورغم زعيق الراديو الذي توقف عن بث الاغاني

الغربية وبدأ باذاعة موسيقى كلاسيكية لسبب لم يفهمه بو علي ، ورغم شتائم الست شاشا لعدم فوز العزيز ببوش ، ظل بو علي يكرر بذهول : ليت « علي » يحمل السلاح ...

وصل الجميع القصر مع غروب الشمس... **(يا ليلة الذعر في عيترون ... سأسرق « الجفت » عن جدار المكتبة وأذهب الى هناك)** حمل الكلب كعادته ولحق بأم ببوش التي ساح ماكياجها وسقط أحد رموشها وشاشا التي بدأت تشاركها البكاء لسقوط ببوش في انتخابات ملك جمال الكلاب ، وفي المكتبة كان نظوم بك الحسباوي مع صديق له جالسين ... مرت بهما أم ببوش وهربت تتابع البكاء بعدأن ضمت ببوش الى صدرها وعاد بو علي الى المكتبة وقد استقر رأيه على استئذان البيك بالذهاب الى قريته لتفقد الاحوال ... دخل ولم يشعر به البيك وصديقه فقد كانا يتجرعان الويسكي ويتسامران ... قال صديق البيك : صارت زوجتانا هرمتين وبشعتين ...

ونحن أيضاً هرمنا ... ماكان أحلى أيامنا مع تغريد وكهرمان وجواهر ... **(تغريد ! هل يمكن أن يكون هذا هو « البيك » نفسه ؟ .. وهل يعنيان تغريد نفسها ؟ أم علي ؟ .. ولكن ما الفرق ؟ ... أريد الجفت الآن لا لأقتل البيك وانما لاذهب الى هناك ... هناك حيث الحقيقة الوحيدة) ..**

ورغم كل شيء غص بو علي بالبكاء فذهب الى مقعده بالمطبخ وارتمى فيه قليلاً ثم انسل الى كوخه الخاص في حديقة القصر ...

بين يديه دفن رأسه وانزلقت الاعوام أمام عينيه وعبثاً حاول استمداد العزاء من فتل شاربيه كعادته ... كان لهما ملمس الرماد . كان قد تم اغتيالهما بطريقة ما ... ولكن وجد العزاء في تكرار صلاته : ليت « علي » يحمل السلاح ... أنا انتهيت ... ضعت ... هرمت ... ليت « علي » يحمل السلاح ...

(هناك حركة خلف الكوخ ... اني متأكد من ذلك) ...

يسير بهدوء ملتفاً حول كوخه ... يرى على الارض آثار دماء ... نقطة نقطة ... يلحق بها ... نقطة نقطة تلتمع في النور القوي الذي يشع في الحديقة ليلاً خوفاً من السارقين أو لتخويفهم ...

على الارض شبح يتلوى ألماً ...

يصرخ بو علي : ابني ... علي ... جريح ... اذن حملت السلاح ...

ــ حملت السلاح !

ــ وحاربت !

ــ لا . حاولت قتل أختي دفاعاً عن العرض . ضبطتها تحاول الهرب مع جول الى المغارة منتهزة فرصة الغارة الاسرائيلية ... ادعت أنها تريد أن تحارب معهم وتنضم اليهم ... هجمت عليها بالخنجر لأذبحها من الوريد الى الوريد ...

ــ وبعد أن قتلتها حاربت وجرحت ؟...

ــ لا . اختي « الوغدة » جرحتني !... كانت مسلحة ! تصور ... وتحكم التصويب أيضاً ... قالت لي هذه المرة سأخدشك ، وفي المرة الثانية سأقتلك !

ــ ثم ؟

ــ ثم قتلتها طبعاً ... لم أهرب وانما اختبأت ، ورغم جرحي انقضضت عليها من الخلف وقتلتها وهربت ... خبئني يا أبي ريثما يطلع النهار ...

ــ ثم ...

ــ ثم أذهب الى الشرطة لأسلم نفسي بكل فخر ...

ــ ثم ... عيترون ... ماذا حدث ؟... هل أحرقوا كل شيء ...

ــ لا أدري . لم أبقَ وانما هربت ... المهم انني قتلتها ...

يدمدم بو علي « يا ويلي » مرة واحدة ، ثم يصمت تماماً ... تسقط ذراعاه كمجدافين أكلتهما العواصف وأهوال الابحار ... ومن عينيه تطل نظرة حزينة كتلك التي تتوهج من دمعة متحجرة في تمثال عتيق على رف متحف لمدينة دمرها بركان منذ عصور ...

وفي الصباح لا يلحظ أحد أن شيئاً تغير في بو علي سوى انه حلق شاربيه .

ولم يشك أحد به حين وجدوا ببوش بعد أيام في الحديقة مذبوحاً من الوريد الى الوريد ...

الساعتان والغراب

ريكــاردو ...

موجع أن تمرض في فندق ... فالمرض ترف لا يقدر عليه الناس الوحيدون امثالي ..

وهذا يومي الثالث وانا محمومة ، مرمية في فراش ، وقد بدأت ارى النمل يخرج من وسادتي .. ليأكلني ..

ها هو صرصور يتحرك بين أكوام العقاقير الى جانب السرير ، والمروحة الضخمة تركض في السقف ومن الخارج تهب رائحة عدن الخاصة واصواتها وهمهمات المارة تحت الخص الخشبي .

ريكاردو ... يا ريكاردو ...

عبثاً استعيد ذكراك ...

عبثاً ألملم ملامح وجهك في ذاكرتي واعيد لصقها من جديد ...

عبثاً اتذكر صوتك ، والسنوات الخمس التي عشناها معاً ايام دراستنا الجامعية وبعدها ... وضحكاتنا المخمورة المجنونة في ليالي باريس وجنيف ..

والبيت الذي أسسناه معاً ، واشترينا كل كرسي فيه معاً ... وحتى علبة الملح ، وصندوق الخبز ، ومكعبات البراد التي ضحكنا طويلاً لأن لها شكل قلوب ...

عامان بعد الجامعة وكل لحظة نعيشها معاً ... نخطط فيها ليوم زفافنا الذي كان من المفروض ان يتم اليوم... واليوم ، إذ افكر بك ، احس ان قلبي يستحيل ثلوجاً كتلك المكعبات التي اشتريناها .. اليوم .... بيني وبينك قارات وبحار ومئات الاميال ...

طائرة ؟ اجل . الطائرة تستطيع ان تلتهم هذه المسافات في ساعات ... ولكن . ما يقف بيني وبينك اليوم لا يمكن لشيء ان يلغيه الا الموت ... لانه ليس الرجل الآخر هو الذي يحول بيني وبينك ... إنه « أنا » ... أنا الحقيقية التي ايقظها الرجل الآخر وكنت اظنها ماتت منذ زمن بعيد ...

ريكـــاردو ...

عبثاً استعيد ذكراك ...

عبثاً ألملم ملامح وجهك في ذاكرتي ..

عبثاً أصدق انني حقاً كنت هناك ، وقضيت طفولتي ومراهقتي هناك بين باريس وجنيف ، وانني حقاً عرفتك ... عبثاً اشعر بالذنب تجاهك .. ذاكرتي ... احسها مثل ابرة حاك صدئة تركض على اخاديد اسطوانة الماضي وتحاول عبثاً ان تبعث في اهترائها صوت الايام الغابرة ... اتساءل : احقاً كنت هناك ، ام أن كل ما كان كان حلماً ، وها انا قد عدت الى ارض الحقيقة وأرضي الحقيقية ؟...

ريكـــاردو ...

نسيت !... لنقل ببساطة انني نسيت !...

ولكن الأمر ليس بهذه البساطة

لم انسَ .

الامور اشد تعقيداً من ذلك ... واحس وأنا الاحقها انني سجينة شرنقة من الخيوط الجهنمية الحبك ، عبثاً التقط بداية الخيط وأفك الشبكة ...

ريكـــاردو ...

حتى صورتك التي استخرجها من تحت وسادتي ، أتأملها دون ان ينبض في اعماقي وتر . كأني ارى صورة رجل لا اعرفه . لا اكرهه ولا احبه ولا دخل لي به ، ولا ادري من الذي دس بصورته تحت وسادتي !...

نعم ! عيناه واسعتان خضراوان. الشعر كستنائي ومضيء والابتسامة حارة على شفتين كأنما فرغتا للتو من قبلة مسعورة ... ولكن ما شأني بهذا كله ...

وحينما أحاول ان استزيد من النظر الى صورتك ، تزوغ ملامحك وتتلاشى مثل رماد لفافة ... واعجز عن مزيد من الرؤية ... ربما كانت هي الحمى التي تأكلني منذ ايام ثلاثة ...

وربما كانت هي المروحة التي تـــدور فوقي في السقف بأذرعها الحادة ... تدور تدور تدور ... احس شفراتها الحادة تمزق افكاري مع كل دورة ... تشتتها ... المروحة ... والحر ... الحر الذي لا يستطيع اوروبي مثلك أن يفهم كيف يخرج من شقوق الارض واحجارها وصخورها ومن البحر ومن الناس كما يخرج الضباب في بلادك ...

(هل تذكر يوم حملتني الى معمل والدك للكبريت في ضواحي جنيف ليلة رأس السنة الماضية !... هل تذكر اللهيب الذي كان يفوح من موقد المعمل حيث امتلكتني على الارض الموسخة بالفحم والوقود ، المخططة مثل لوحة سيريالية للشهوة تحت جسدي ؟

هل تذكر ؟ كانت ليلة باردة . قلت لك : يدهشني كيف ينجب الناس اطفالاً في اوروبا ، ففي هذا البرد ، كيف يفكر الناس بخلع ثيابهم ولو لدقائق ، وحتى في شهر العسل ! ... قلت لي : ولكنك عشت حياتك كلها في اوروبا ... صرت واحدة منا ...

ــ لا . لم أصر واحدة منكم ... فقط عشت معكم ...

ــ هل انت مصرية ام سورية ؟ لم اعد اذكر ...

ــ لا فرق . لكنني يمنية من صنعاء . والدي قريب للسلاطين او مقرب منهم لا فرق . أمي ماتت ، وابي بعث بي الى مدارس اوربا الداخلية منذ كنت في العاشرة من عمري ... اغلى المدارس ... ولكنني لم اره قط بعدها حتى في الاجازات ... كان اصدقاؤه يأتون الى المدرسة . يدفعون القساطي . يرتبون لإجازاتي ... صرت اتخيل ان والدي هو رقم لرصيد في احد بنوك جنيف وانه مثل كل الارصدة سري الرقم ، وصعب الحصر .

ويوم خبرني اصدقاؤه بحزن مفتعل نبأ وفاته ، وكان في وجوههم التعبير نفسه الذي لوجه ساعي بريد مكلف بحمل برقية نعوة ، مهذب وعابس ولا

مبال ، طلبت منهم ان يوفروا على انفسهم عناء الحزن ... فأنا لم احزن . كان ميتاً منذ زمن بعيد بالنسبة الي ّ . كان مجرد حساب في البنك ، ولما عرفت ان حساب البنك يكفي لإعالتي كي اتابع دراستي قلت لهم : اذن ابي الذي اعرفه لم يمت وهذا هو المهم ...

ـ فلننس هذه الذكريات المحزنة . قررت أن امنحك دفء بلادك هذه الليلة ... ما رأيك بأن نقضي ليلة رأس السنة في فرن ؟ ...

ضحكت للفكرة . سألتك : هل هنالك مطعم جديد في جنيف اسمه « الفرن » ؟ ...

ـ لا . بل في فرن حقيقي . لقد اعددت شرائح من الجبن وزجاجة نبيذ معتق ، وسنقضي سهرتنا في معمل أبي للكبريت .. بالضبط في غرفة الوقود . لقد رشوت العامل وسيسعده ان يخلي لنا المكان ...

قرب الفرن النفاذ الحرارة ، اغمضت عيني ، ومنحتك جسدي ، وحلمت انني في ضاحية بصنعاء ، في الصحراء ، خلف الجبل الاخضر ، ممددة فوق الرمال الحارة ـ حيث كانوا يأخذوننا من زمان اطفالاً للنزهة ـ الرمال حارة تحتي ، وأنا زنبقة الصحراء السوداء اسكب في الليل بعضاً من الوهج الذي سكبه فيّ ، اعكس اليه الرعشات التي طالما شحنني بها ، انا ليلى التي استطاعت ان تكون لقيس ، وانا عبلة في احضان عنترة ، وانا شهرزاد بعد ان كفت عن الكلام « المباح » وبدأت تعبر الجسر الى نشوات « اللامباح » ، وانا كل نساء صنعاء وكل شهواتهن الخارجة من ازقة مدينتي الضيقة الى دفء الصحراء في ليالي اليمن) ...

اذكر جيداً كم استمتعت بي يا ريكاردو تلك الليلة ... وانا كنت اظنني سعيدة بجسدك ... ولكنني الآن فقط أعي انني لم اكن اضاجعك وانما كنت اضاجع الصحراء الحارة تحتي ... وكنت اتحد بذكرى وطني ، بذكرى حرّه اللاهب ، رغم سنوات الفراق ، لم اكن قط اوروبية حقاً ، ولم اشعر حقاً بأي انتماء . لم ابال قط بأخبار صحف المدن التي عشت فيها ... لم

اناقش قط في مشاكلهم ، ولم الاحق قط قضاياهم . كنت مثل السنونو الذي ينتظر بغريزته ودونما تخطيط قدوم الربيع ، كي يعود الى سربه والى حقله ...

كان صقيع اللامبالاة الذي أحياه يرمي بي الى ضجر ينزف من حواسي كلها ... كنت اشعر انني مقيدة الى قطار رتيب يركض بي بلا نهاية في سهوب من الثلوج ، دونما اية محطة ، او تبديل في سرعته ، او حتى حادث اصطدام.. كنت احلم بالكوارث بشهية واقرأ اخبار الحروب والزلازل بحسد ! (هل تــذكركم كنت افرح حينما أصاب بالانفلونزا او (الجريب) أو ايــة حمى ؟ شيء ما في طقس بلادكم كان يرفضه جسدي ... وكان جسدي يحتج ، وكان احتجاجه باستمرار حمى ورشحاً وبرداً ...

وكنت افرح بالحمى ...

كنت افرح برعشة المرض ... تلك الرعشة ... تلك القشعريرة التي تهز اوصالي ... كانت الرعشة الوحيدة التي تمر بحياة تلك البائسة المقيدة الى قطار سهوب الثلوج اللامتناهية .. كنت تضحك مني ، يا ريكاردو ، حينما ازف اليك بفرح نبأ مرضي ...

لم تكن تفهم قط معنى روعة تلك الرعشة بالنسبة إليّ ...

كنت تظنني غريبة الاطوار...

وتضحك مني ...

وكنت أحس بالخيبة ... فانت كاسباني الأصل ، في دمك بعض من دمي ... او هكذا خيل اليّ في البداية ... ومن المفروض ان تفهم بعضاً من جنوني ...

وميشيل الفرنسي زميلنا في الجامعة كان يتقن التقبيل اكثر منك ، وتنميق الالفاظ والتحليلات النفسية الفرويدية ...

وريتشارد الانكليزي كان افضل منك في لف سجائر «الماريوانا» وصنع مخدر الـ (ال . اس . دي) في مختبر الجامعة ...

وولفجانك الألماني كان حصاناً في مرج المتعة لا مثيل لأصالته ووحشية ركضه ...

لماذا انت ؟ ... ربما كان ميشيل على حق يوم قال بعد ان رفضته : انك تفضلين ريكاردو لمجرد انه اسباني . انه الدم العربي فيه هو الذي يشدك اليه . انك رغم كل قشورك ما تزالين عربية صحراوية ، وبالرغم منك تنجذبين لكل ما يذكرك بهذه الحقيقة ... وضحكت منه ... ضحكنا معاً) ..

وكنت اظنني احبك يا ريكاردو ...

حتّى التقيت هنا بفضل ..

فضل .. لن تستطيع لفظ اسمه ، ففيه حرف الضاد .. فضل . عربي الاسم . عربي اللسان . عربي الوجه . عربي النزق .... عربي العطاء ... عربي الثورة والكفاح والألم ...

انني اهذي ... اعرف انني اهذي .. فضل عربي الجسد، ففي قدميه ما تزال آثار سلاسل وقيود الجلاد الانكليزي .. انني اهذي .. ثلاثة ايام وانا مرمية هكذا ... والحر يسوط عدن ... والحمى تلهبني ... والمروحة الكهربائية في السقف تدور وتدور .. وحتّى حينما اغمض عيني تظل هي تدور ، واظل عبر جفوني ارى ظلال شفراتها ...

ثلاثة ايام منذ أصبت بهذه الانفلونزا المدارية التي لم يألفها جسدي ... اليوم فقط بدأت ارى النمل يخرج من وسادتي وصرخت هلعاً وادعت الممرضة انني واهمة وانها الحمى . لا مناعة لدي في بلادكم . ولا مناعة لدي ضد امراض وطني ... انا شتلة عاشت في غير ارضها ، وعبثاً تعيد انغراسها في ارضها الأم ... طحلب هجين انا ، ولا نجاة لي ...

فضل يقول انني سأنجو ... انه يضحك من مخاوفي ...يقول ان وطني بحاجة اليّ .. آه كم انا هشة .. تلفظني ارضي كما تلفظ التربة البركانية اية نبتة هزيلة .

في اليوم الاول لمرضي لم اكن خائفة ... كعادتي فرحت بالحمى ...

فرحت بالقشعريرة الشرسة التي تستولي على جسدي كله ...

ولكن الحمى هذه المرة من نوع لم آلفه ... وها انا اتلاشى شيئاً فشيئاً ...

وحتى قشعريرة الحمى لم تعد تهزني .. صرت مثل ارض رخوة حل بهـا الزلزال فلم يجد ما يهزه ... لا قشعريرة ... مجرد نار تشتعل في خلايا جسدي كلها .... يخيل الي ان النار التهبت فيّ منـذ وصلت الى هذه الارض ، كأنني كنت مرصودة للمجيء وللاحتراق هنا ، كأن العودة الى النبع كانت محتومة ... والاسماك ترجع دوماً لتموت في المغاور التي شهدت ولادتها ..

في جنيف قبل أن اجيء الى هنا ، كنت اظن الأمر مجرد مغامرة صحفية اخرى...

(قال رئيس تحرير المجلة التي كنت اعمل فيها منذ تخرجت من الجامعة : نريد محرراً يطير الى اليمن الجنوبية ويحاول الوصول الى مسقط للكتابة عن حقيقة الثورة منها ... ما رأيكم ؟

تململ المحررون . كرر رئيس التحرير : ان اية ثورة في اي مكان في العالم أمر يخص الانسانية كلها . ومن واجب الصحافة ان تحقق في حقيقة هذه الثورة ، ومدى اصالتها ، ومدلولها ...

قلت له : انا سأذهب ... انت تعرف انني يمنية الأصل .

ـ والدك من السلاطين وقد لا يُسمح لك بالدخول .

ـ لا اظن ذلك ... على اية حال يمكننا ان نبرق لهم .

ـ حسناً . انت تعرفين العربية وهذه ميزة في رحلة كهذه . حسناً . رتبي الأمور مع سكرتيرتي .

وتدخل زميل كان يطمع في الرحلة : ولكنك ستتزوجين هذا الشهر ! ...

ـ يستطيع الكاهن ان ينتظر قليلاً . هذه رحلة طالما تمنيت القيام بها . سأطير الى عدن ثم احاول الوصول الى مسقط ، ومن صنعاء اعود الى جنيف ..

وليلتها غادرت المكتب وسرت طويلاً في شوارع جنيف المحيطة بمكاتب جريدتنا « نوفالا » ... امام احدى واجهات باعة الساعات توقفت طويلاً . لاحظت ساعة يد غريبـة ، ساعة مصابة بازدواج الشخصية ، فهـي تتألف من ساعتين داخل اطار واحد ... ولا ادري لماذا وجدتني ادفع كل ما كان معي من نقود ثمناً لها ...

وعدت بها الى البيت ، ولبستها في يدي بعد ان ضبطت الاولى على توقيت جنيف حيث أعيش ، وضبطت الثانية على توقيت الزمن في عدن ...

بعد اسبوع جاء الرد بالموافقة على استقبالي كصحفية اجنبية سويسرية !

وضحكت طويلاً امام المرآة . انا سويسرية . والليل في شعري وعيني ، وبشرتي الصحراوية ! .. انا اجنبية ؟ . وما معنى ذلك التوق المرعب الى ان اكون هناك ؟ .. ولماذا أرتجف وانا احمل بطاقة السفر وأقرأ اسم عدن ... ولماذا لم احس بشيء من هذا في رحلاتي الصحفية السابقة كلها ... الى نيويورك .. وهاواي ومدن اخرى طالما حلمت بها ؟)

آه كم رأسي ثقيل ... يجب ان اكتب شيئاً للجريدة التي اعمل فيها ...

منذ غادرت جنيف لم اكتب حرفاً واحداً .... منذ ثمانية عشر يوماً ... كنت اطوف اليمن ... اركض خلف طيور الماء البيضاء على شاطىء أبين ... وألملم اصدافها ... وكنت انتشي بالغناء العدني في مسارحها ... وكنت اذهب الى متحفها واسير في شوارعها والقلم في يدي .. اخط ملاحظات صحفية وفي داخلي شعور مبهم بأنني لن اكتب شيئاً ... ولن اخرج من هنا ... وكنت اجلس امام فضل ، أحد ثوارها وقادتها ، أسجّل آراءه وانا احاول أن أمتصّه بنظراتي مثل اسفنجة ... كنت وانا احمل القلم والورق اشعر انهما ادوات تنكري ، وانني كصحفية اؤدي دوري في مسرحية هي المبرّر لوجودي هنا ... لكنني كنت في اعماقي احيا للمرة الاولى منذ اعوام بعيدة... كنت مثل سمكة اعيدت الى البحر بعد ان تخبطت طويلاً في شوارع نائية في قارات الغربة .

أحببت فضل . احببته حتى الوجع . حتى الحمى . احسست بالحمى أول مرة سمعته فيها يتحدث ... لا بل احسست الحمى أول مرة وطئت قدماي هذه الارض تلك الليلة المسحورة (مطار عدن . الفجر لما ينشق بعد . هبطت من الطائرة . هاجمتني رائحة عطرية دافئة . المطار صغير وفقير والطائرات قليلة ، ولكن نبتة وحشية الخصب نمت قرب المدخل رغم اسفلت المطار .. شجيرات غامقة الخضرة تفتحت فيها زهور وردية استوائية حارة اللون لها

رائحة عطرية خاصة .. رائحة نفاذة دافئة هاجمتني منذ اللحظة الاولى . كنت فيما مضى احس ان الروائح في اوروبا خافتة كالذكريات . هنا الرائحة نفاذة تجلدك .. ووسط هذه الحديقة الصغيرة تناثرت طاولات ومقاعد لتكون مقهى المطار . ومقاهي الترانزيت في مطارات اوروبا التي تهت فيها هي دوماً مكان كئيب تجلده الريح الممطرة والصقيع ، وفي احدى ردهاته المغلقة يحتسي المسافرون الضباب والبرد والغربة مع قهوة الصباح .. آه كم شربت قهوة الغربة في صباحات المطارات النائية الموحشة .. هنا انفاس الفجر الحارة توحي بانني في عالم آخر ... عالم لا يعرف الشتاء ... والروائح العطرية كثيفة الحضور ...

وتقدم مني شاب محروق البشرة يسألني بالفرنسية : مدموزيل أيدا ؟ انا شودرى الأحمد . انتدبتني وزارة الأعلام لاستقبالك .

لم اقل شيئاً . كنت حزينة حتى الموت لانه خاطبني بالفرنسية . انا هنا في وطني ، وانا هنا سويسرية . هذا ما يقوله جواز سفري على الاقل ! ... واسمي عايدة وينادونني أيدا ! تحجرت وتذكرت كل ما سبق وقرأته من اكاذيب شعرية وادبية عن العودة الى ارض الوطن ، وكيف يركع العائدون ويدفنون وجوههم في حفنة من ترابهم . اكاذيب أدبية . لم اركع . كنت مشلولة . ولم اتناول حفنة من التراب ، فقد كان الاسفلت تحت قدميّ صلباً ، واحسست ان الدم يندفع الى وجهي كأنني مرغته للتو فوق اسفلتها ... ولكنني كنت واقفة بلا حراك ، وأيقظني صوت الشودري يقول بالفرنسية ايضاً : الأخ فضل النديم .

كانت اول مرة أراه . كان نحيلاً أو ربما بدا لي هكذا بوجهه المتعب بينما اضواء الفجر تنبلج وترمي غلالتها الرمادية فوق ملامحه المليئة بالقلق والارهاق . كان له وجه رجل لم ينم منذ ايام ، وربما منذ اعوام ... ولولا ذلك الشعاع النفاذ الذي كان ينبعث من عينيه وكله عناد وشراسة ، لظننته مشرفاً على انهيار عصبي ...

وبدا لي من الحركة غير العادية في المطار انه كان يودع ضيفاً ما ... قال لي بالانكليزية وبلهجة شخص ليس لديه وقت يضيعه بالمجاملات :آه . مندوبة جريدة « نوفالو جنيف » ؟ تذكرت . استطيع ان اقلك بسيارتي الى عدن .

في السيارة وقد غادرنا اصغر وأفقر مطار شاهدته في حياتي ، ولكنه المطار الوحيد الذي تفوح منه رائحة عطرية برية حارة ــ اتجهنا نحو عدن ...

وبدأت اخلع اكوام الثياب التي كنت ارتديها ... كان الجو حاراً حاراً كما كنت اتذكره في احلامي التي طالما دارت في اليمن .

المدرسة الداخلية في ضواحي جنيف باردة باردة . ليلة عيد ميلادي الرابع عشر تذكرت أمي التي لم اعرفها وحقدت عليها لانها تجرأت على ان تموت وتتركني . وتذكرت الشيك الذي وصلني ، والذي يمثل بالنسبة الي ابي ، ونمت دون ان أبكي ، لكنني اخرجت من درجي المقفل مدفأة كهربائية اسرق بها الدفء واضعها في غرفتي الصغيرة ليلاً في ليالي الوحشة والبرد ، ثم اخفيها بحذر مع خيوط الصبح الاولى قبل ان تكتشف الراهبة ذنبي . واشعلت المدفأة الكهربائية ، وحلمت ليلتها بأن الدفء شديد شديد ، وبانني اسير مع أمي في أحد شوارع اليمن ، وانني صغيرة والعرق يتصبب مني واريد أن اقبل امي ولكنها طويلة طويلة ونائية وانا صغيرة واننا نمر امام باب معبد هندي وان رائحة نفاذة معينة تفوح منه ، وأن امي دخلت الى المعبد وخلفتني في الخارج ، ثم يشتد الحر وتطلع الشمس مثل وحش له اسنان من النار ، وان الشمس تقترب مني وتقترب وانني التهب وانني اصرخ واصرخ ...

واستيقظت وانا اصرخ ، وكانت النار قد شبت في الستائر وفي ملاءة فراشي وكادت تمسك بي . لقد قربت المدفأة تلك الليلة اكثر مما يجب ... ويومها دفعت « الشيك » الهدية ثمناً للضرر المادي الذي احدثته ، كما ان الراهبة اللئيمة هددتني بجهنم عقاباً للخطيئة ، ولم تقل شيئاً عن سرقتها لثمن

الوقود الذي ندفعه ، والذي تبيعه بدلاً من ان تدفئنا به في ليالي وحشتنا نحن نزلاء المدارس الداخلية الذين حتى بعد ان نغادرها نحس بان العالم كله ما يزال مدرسة داخلية بالنسبة الينا .. ونظل طيلة ليالي عمرنا نحس لسع بردها الموحش الكثيف ...

للمرة الاولى منذ زمن طويل ، احسست بمتعة الدفء ، وزايلني البرد تماماً بينما نحن في طريقنا من المطار الى عدن ، وخلعت اكثر من خمس «كنزات» . انفجر فضل ضاحكاً وقال بالعربية : ها انت تتصببين عرقاً والشمس لما تطلع بعد ، ونحن في منتصف الشتاء بين كانون الثاني وشباط ...

وادهشني انني افهم العربية جيداً رغم انني لم اسمعها باللكنة اليمنية منذ زمن طويل ... كنت التقي ببعض الفلسطينيين والسوريين في اوروبا . لكن اليمنيين من ابناء واحفاد السلاطين وحاشيتهم الذين هربوا اموالهم الى اوروبا كانوا يتجنبونني ، فرغم ان والدي كان واحداً من طبقتهم الكريمة ، إلا أن امي كانت فيما يبدو خادمة لديه ولم تكن من طبقة « الاسياد » وانما من « الخدام » ... ربما لذلك نفاني بعيداً كي لا يرى في وجهي ما يذكره بما يظنه عاراً على طبقته ... فليذهب إلى الجحيم هو وطبقته ورقمه السري في بنكه السويسري (لقد ذهب على اية حال وانقضى الأمر) ..

الضوء يملأ الدنيا ونحن ندخل عدن ، الجبال سوداء بركانية وحشية الصخور والجمال ورياح الفجر البحرية الدافئة التي تأتيني عبر نافذة السيارة تحمل اليّ رائحة خاصة وايحاءات عجيبة .. تذكرني بانني في الارض التي حلمت بها ، حلمت بانها ارض الاساطير وقدم آدم ومركب نوح والبخور والعاج وبلقيس .. لم اكن ادري يومها انني سأنسى كل شيء عن هذه الصورة الوهمية ، وانني في ارض الحقيقة العربية الاولى : الثورة ! ... وان عدن هي جمرة الجزيرة المعتمة .. أتأمل وجه فضل في النور .. منذ الدقائق الاولى اثار في نفسي شهية لمعرفته ... لرؤيته في ضوء أفضل .. لسماع المزيد من

كلامه ... للنفاذ الى ما تحت جلده .. لكنه كان شحيح الكلام ... لم يفتح فمه إلا حين اقتربت السيارة من شارع تبدو فيه بيوت التنك والفقر المروع قائمة خلف بيوت عصرية حديثة ... وبدت الابنية الحديثة في هذا الاطار الكثيف من الفقر الذي لم ار لمظاهره مثيلاً من قبل مثل ديكور لفيلم «وسترن» داخل قرية من البؤس .. قال فضل بحرارة : هذه الابنية كانت قبل الثورة للانكليز ولعملائهم ... وخلفها يعيش شعبي كما ترين ... هل تفهمين العربية ام تفضلين ان احدثك بالانكليزية أو الفرنسية ؟

وكنت افهم . كنت اجد صعوبة في الرد بالعربية ، لكنني كنت افهم كل حرف ، وكنت استمتع بسماع كلماته مثلما يحس سجين في المنفى حينما يسمع اغنية كانت أمه تنشدها له في طفولته لينام ، يغنيها سجين آخر عبر الجدران الحجرية للسجن ...

توقفت السيارة اخيراً امام فندق « كريسنت » . وتمنيت لوابقى معه ... أحستني قريبة منه ، واعرفه منذ زمن طويل ، حتى ادهشني ان عليّ ، ان اقيم في الفندق وحدي هنا بدلاً من ان ارافقه الى داره ! ...

لم يبد عليه انه يشاركني شعوري . قال لي بشيء من البرود : انا ورفاقي على استعداد دوماً للاجابة على اي سؤال . اتمنى لك اقامة طيبة هنا ...

وذاب مع خيوط الشمس الاولى ... واعطاني الشودري رقماً وقال : متى استرحت من رحلتك اتصلي بي لنبدأ العمل ...

ومن يومها لم اعرف الراحة ! وحين ضمتني غرفتي وحدي ، لا ادري لماذا ادرت عقارب ساعتي المزدوجة وبدلت توقيت الساعة التي تشير الى توقيت جنيف ، فجعلتها تشير الى توقيت عدن . صارت الساعتان تشيران الى توقيت اليمن . وحين أخرجت صورة ريكاردو، شاهدت فيها وجه فضل) .

يد فوق جبيني .

بصعوبة افتح عيني .

الممرضة بثيابها البيض تقول : هل تسمحين بقياس حرارتك ؟... خلف رأسها مـــا تزال المروحة تركض .. والعرق يتصبب منهـــا ومني ومن

الجدران ومن الخص الخشبي للنافذة . أسألها كم الساعة ... فخلف الخص الخشبي للنافذة يمر بي كل ليلة طائر يشبه الغراب ... ينقر خشب النافذة ويهزها بجناحيه كأنما يحاول أن يوصل اليّ رسالة ما ... كأنه رسول من مكان ما يريد مني ان ارافقه الى حيث لا ادري ...'

قالت : انها الثانية عشرة ظهراً .... نسيت ان اقول لك إن السيدة فاطمة النديم زوجة الأخ فضل اتصلت بك بينما كنت نائمة ... إنها ترغب في زيارتك وستأتي بعد ان تنتهي من عملها ...

– عملها ؟ وهل تعمل ؟

– طبعاً . انها استاذة ومن زعيمات الحركة النسائية عندنا ..

زوجة فضل ! ...

ذلك الكيس الأسود الذي كان يتدحرج خلفه في الشارع في الليلة التالية لوصولي الى عدن ... شاهدتهما ولم يشاهداني .

كنت في سيارة وزارة الاعلام مع الشودري . شاهدتهما من بعيد ، كان يسير ، وكانت تسير خلفه على بعد خطوة ، وكانا كغريبين ارغما على المشي على رصيف واحد بالصدفة .. كانت شيئاً ملفوفاً بملاءة سوداء يتحرك على الرصيف قال الشودري ان اسمه (الدرع) ... وجدت في هذا المشهد بعضاً لتفسير الوحشة التي تومض من آن الى آخر في عينيه ...

قررت : كم هو مروع ان يكون مناضل كهذا وحيداً ، عارياً من نصفه الثاني ...

قررت : افتقده . ويجب ان اراه .

قلت للشودري في اليوم التالي : اريد اجراء مقابلة مع الأخ فضل . هل يوافق ؟ ...

قال : اشك في ذلك . انه مرهق ، وقد اعلن اليوم عن اعتكافه في مكان ما خارج بيته ...

قلت له : ارجوك ان تحاول ...

في اليوم الذي تلا قال الشودري : وافق الأخ فضل على استقبالك . اختصري في اسئلتك لأنه متعب ...

كان فضل وحيداً في منزل يطل على شاطىء بحر العرب ...

فتح لنا الباب . بدا شاحباً وأصغر سناً ... ولاحظت أن يده الممسكة بالغليون ترتجف .. وامامه كتاب « المسيح يصلب من جديد » لكازانتزاكيس . شعرت بعاطفة جارفة نحو ذلك الرجل الرقيق الصلب كالفولاذ ، الذي يمسك باصابعه النحيلة عشرات من المتاعب والأزمات ... فالانكليز لم يخرجوا من عدن الا بعد ان خلفوا لها تركة هائلة من التخلف والفقر والمشكلات ... وخلفوا للثوار الغاماً من المصاعب تنفجر واحداً بعد الآخر .. احسست بعاطفة جارفة نحوه حينما لاحظت اسماء الكتب التي تملأ المكان . انه مثقف . اي انه معذب . حينما يكون السياسي او الثائر مثقفاً تتعمق قدرته على الحس بالصراع والألم ... قال لي بصوت خافت جداً : اهلاً بك ... هل تحبين ان نتحدث بالعربية ؟ ...

وتحدثنا طويلاً عن تجربته قبل الاستقلال وبعده ...

– ايام الاستعمار ، كنت اتنكر باللحية والعمامة وانا مطلوب حياً أو ميتاً ، واتحرك امام اعين الانكليز دون ان يعرفوني ... في البداية أحسست بالخوف وانا اتجول هكذا في صنعاء ... اتنقل في البلاد ... ثم ألفت ذلك ، ويوماً بعد يوم مات في قلبي ذلك النبض الحار الذي يشبه اللذة والمدعو الخوف .. لم يبق من تلك الأيام غير آثار قيود السجان على قدمي . بعد الاستقلال واجهنا مشكلات اكبر واخطر ...

قلت له بالعربية متوكئة في بعض الالفاظ على الانكليزية ، وكنت فرحة بها مثل طفل اكتشف نشوة المشي للمرة الاولى :

– انكم تواجهون مشكلة مرعبة هي هبوط الدخل القومي بعد الاستقلال هبوطاً هائلاً ... فالوعي السياسي ليس بديلاً عن الطعام ، وكل ما في الأمر انه يساعد على مزيد من الصبر ... ماذا لديكم من خطط ؟

والتهبت عيناه ، وانطفأ غليونه .

وبدأ يحدثني بايمان مدهش عن المسيح الذي يحمل السيف ، وعن تأميم البنوك ... والتنقيب عن المعادن ... والثورة التي خلقت في اقطار عربية اخرى ثواراً بالكلمات والسموكن، وثوار مقاه ، لكنها في عدن المتقشفة المناضلة تخلق عمالاً حقيقيين يثورون في الحقل والمصنع لا في الحفلات والندوات التلفزيونية .. وكان يتحدث ... وكنت اكتب ... وخلفه على الجدار التمع خنجر حاد ... وكلما ازداد كلاماً وحماساً كنت احس بالخنجر يزداد حدة والتماعاً ويكبر ويكبر حتى يغطي الجدار كله ... والتهبت حماساً ... والتهبت الشمس في البحر خلفه ، واضاءت امواج الخليج وكان ضياؤها خناجر ، آلاف الخناجر التي تعوم على مياه الخليج ، وخيل الي ان آلاف السباحين يحملونها في افواههم يسبحون تحت الماء كاسماك القرش الشرسة ويحومون دفاعاً عن الشاطىء الذي استبيح مرة ، ورست فيه للمرة الاولى باخرة الاستعمار ، وخرجت منه للمرة الاخيرة .. أبداً ...

ومرت الدقائق ... لا ، بل الساعات ، فقد سمعت صوت رحيل سفينة في الافق البعيد ... وحزنت .. وقلت له فجأة :

ــ هل استطيع استعادة جنسيتي ، والبقاء هنا ، والعمل هنا ؟

قال بحرارة خنجر يعانق غمده دون ان يؤذيه : ــ طبعاً . ستبقين) .

الحمى تمزقني ... اشعر اني عاجزة عن تذكر تفاصيل الايام الباقية معه ... آه كم احببته ... كم بكيت في الليل حينما كان يعيدني الى فندقي ، ثم يتلاشى في الظلمة مثل نقطة مضيئة تبتعد ، ويخلفني وراءه مثل شيء ، مثل شجرة ، مثل المقاعد الحجرية في الحديقة امام الفندق .... انها المروحة التي تمزق افكاري . لا . لست مريضة . لست محمومة ، انه الحر ... اوقفوا هذه المروحة .. اذن ستأتي زوجته ... اذن زوجته استاذة وسيدة مثقفة ، وانا التي ظننتها طيلة هذه الايام زكيبة محشوة بالاطفال والضجر ...

تأتي الممرضة وتقول :

ـ حرارتك مرتفعة جداً . اتصلت بالطبيب وسوف يحضر وقد ينقلك الى المستشفى .

اذن لم تعد الابر المحشوة بالبنسلين تجدي امام ارادتي . اريد ان أرحل مع الغراب حينما يجيء الى حيث لا ادري ....

زوجة فضل ستأتي بعد ان تنتهي من عملها وانا التي ظننتها رحماً يجتر القات والثرثرة والتثاؤب ... طيلة لحظاتي الحلوة مع فضل لم افكر بها ولو لحظة واحدة ....

كنت اعتبرها من فصيلة أخرى لا دخل لي بها .. بل كنت احقد عليها ... كنت احس ان « فضل » بحاجة الى امرأة تفهم حقيقة مهامه وتقف الى جانبه لا مجرد آلة حاضنة لاطفاله ... لم اسأله عنها قط حتى في احلى لحظاتنا ... وحتى حينما حدثته عن حياتي وعن ريكاردو وسألني مطولاً عن علاقتي به ، لم يخطر ببالي ان اسأله عنها ....

المروحة التي تدور في السقف تقترب مني باستمرار . تكاد تمزق رأسي . ظلالها المسعورة تفتت ذاكرتي . الممرضة تحمل وعاء ماء وتقترب مني . عبثاً اثبت نظراتي عليها او على اي شيء ... النمل عاد يخرج من وسادتي غزيراً ، والخنجر ، هديته ، أضمه الى صدري ـ يجب الا أنسى ، يجب ان أوصيهم بدفنه معي ـ . الممرضة تحمل وعاء . تضع على رأسي كمادات باردة ... اتركيني ، اتركي صور سعادتنا المحمومة تفور في رأسي ... ثلوج العالم كله لن تبرد صورته في اعماقي ، وأبخرة ذكرياتنا داخل دماغي ...

(اول مرة قال لي احبك ، قالها كما لم يقلها لي اي انسان قط من قبل . هتف الي ظهراً ، ربما من مكتبه ، وقال لي فجأة : قررت انني احبك . وظللت صامتة . شعرت بأن صدري ينشق وانني لم اعد قادرة على التنفس وبدأت الدموع تسيل من عيني . ظل هو ايضاً صامتاً ، واحسست صمتنا عناقاً فيه شراسة الالتصاق اكثر من اي عناق جسدي ...

تذكرت عشرات الرجال الذين قالوا لي « احبك » على ضفاف السين

وفي حانات لندن وليالي جنيف .. لم تدمع عيني قط . بل كثيراً ما اعتبرت الأمر نكتة لطيفة ، أو ثرثرة غير هامة ... وكنت دوماً اضحك للكلمة ولا احس بانها تبدل شيئاً في مدار حياتي أو سلوكي او حتى غربتي .. كلمة « احبك » كان لها هذه المرة وقع آخر ... نكهة مختلفة ... ربما لانك قلتها بهذه البساطة ، وفي ضوء النهار ... وربما لانك كنت وحدك الذي أحببت ... اجل ! قلت لي احبك ، وصمتنا قليلاً ثم اغلقنا معاً سماعة الهاتف ...

وجلست افكر .. ربما للمرة الاولى أحب حقاً ... قبلك لم أحب قط رجلاً ضد مصلحتي .. كنت وحيدة في هذا العالم ، وكان عليّ دائماً ان آخذ بعين الاعتبار عملي ودراستي وعيشي حين افكر بحب أي رجل ... ويبدو انني كنت أعي ذلك وعياً غامضاً ، لأنه لم يحدث قط أن احببت اي إنسان يمكن ان يسبب لي اي اذى ، او دمار نفسيّ او معنوي ... هذا ما الحظه الآن وانا اذكر الرجال الذين مرّوا في حياتي ، لم يكن بينهم من كان عليّ ان اضحي حين أحبه .. لم يكن بينهم من كان عليّ ان اشارك زوجته فيه .. وحتى الرجال المتزوجون الذين خرجت معهم في بعض السهرات ، لم يكن يضايقني كونهم متزوجين او لهم عشيقات ، اذ لم اكن احبهم ، بل على العكس كان يريحني ارتباطهم بنساء اخريات لأن ذلك سوف يحميني من مضايقات إلحاحهم ... كانت هذه أول مرة احب فيها حباً اعرف انه سيدمرني ، دون ان املك له شيئاً سوى مزيد من الاندفاع والجنون ... وها انت تقول لي انك تحبني ، ولن يهدىء من وحشية اندفاع كوكبي الى كوكبك شيء .. وسيكون الاصطدام مروع الدوي والنار والهشيم).

المرضة تستبدل الضمادات الباردة بكيس من الثلج تضعه فوق رأسي وتمضي . احس والثلج فوق رأسي اني مثل بركان تكدست فوق ذروته الثلوج ... تضحكني الفكرة ... اسمع صوتي وانا اضحك ... ضحكي يستحيل انتحاباً ... لقد اضعت الخيط الفاصل بين الضحك والبكاء . وفي فمي طعم غريب لا ادري ان كان طعم الموت او الحمى او الدم أو مزيجاً من

ذلك كله . وجه فضل يلاحقني كاللعنة ، وأحسه بلونه الصحراوي جزءاً من هذه الارض التي احببت ... بل انني حين اتحدّث به للمرة الاولى لم اكن ادري أكنت أتحد به ام بالارض تحتي ... فقد احببت الارض والناس هنا ... أحببت عري صراعهم مع الطبيعة والعصر من اجل البقاء ... هنا احسست انني جزء من قضية ... ان هنالك ما افعله .. ان هنالك من يحتاجني وبالتالي يمنحني سبباً للحياة .

اول دقائق وصولي . واجهت الوجه الاسطورة لليمن ... يمن الخرافات والدفء وألف ليلة والاساطير وجنات عدن . وفي الاسابيع القليلة التالية واجهت الوجه الحقيقي ، الوجه المأساة ، الوجه الشرس الذي يفرض كفاحاً معادل الشراسة ... واجهت جحيم عدن بعد ان قرأت الكثير عن اساطير جناتها ... والتصقت بالوجه الآخر ، احسست بالانتماء .. وجدت معركة تخصني وكنت اقرأ صحفها الصغيرة الفقيرة كل صباح وانا احاول ان افهم بالضبط كيف يحاول هذا الشعب النبيل الممزق الارض الى شمال وجنوب ، المثقل بتركة الاستعمار ، ان يكون وان يستمر دون ان يلعق حذاء الدول القائمة على مبادىء لاانسانية (اسمها الرسمي امبريالية) ....

بدأت جولتي في محافظاتها الخمس مع فضل الذي كان ذاهباً الى جبال يافـــع ...

(كان ذلك في اليوم التالي للقائنا في بيته الملاصق للمنارة ...

غادرنا عدن ...

السيارة الروفر تركض الى شاطىء البحر ... قال فضل بغضبه الفتاك : الاستعمار لم يكلف نفسه عناء شق طريق واحدة بين عدن وبقية المحافظات ...

وطار سرب من طيور البحر البيض ... والسيارة تركض موازية للشاطىء تحت رحمة المد والجزر ثم تنحرف لتسير بين الكثبان في شبه مغامرة مستديمة ..

مررنا بسيارة منقلبة بين الرمال وكانت الشمس قد اكلت طلاءها ولم يبق منها الا بعض القماش الذي يغطي جسدها .. بدت لي مثل جسد انسان

مات منذ زمن طويل والتهمته صقور الصحراء ، وقال فضل : ما يزالون في الريف ينظرون الى السيارة على انها دابة ، وما ترينه من قماش وتزيينات هو بقايا « سرج » الدابة الذي يغطي بعضاً من هيكل السيارة ... أنت يا عايدة قادمة من بلاد مأساتها التخمة التكنولوجية والتخلف الانساني .. هنا نواجه العكس ، لدينا تخلف تكنولوجي ولكن انساننا ما يزال انساناً بالمعنى الاصيل للكلمة ، لا بمعنى بشر المجتمعات الاستهلاكية ...

وتوغلنا في الريف . وكفّ فضل عن القاء محاضراته . بدا شارداً وكئيباً ..

وصلنا الى « أبين » ...

بناء صغير عليه لوحة : « فرع المقر العام لتنظيم الجبهة القومية في أبين ».. ندخل ..

الرجال جبليون اشداء من ابناء جبل يافع ... غرفة بسيطة فقيرة المقاعد ، وغنية بصور الثوار العالميين .. وتجنب فضل والجميع الجلوس فوق « كنبة » مقعد واحد من « الستيل » الثمين المهترئة المخمل بدت لي وسط هذه الغرفة مثل رموش مستعارة على وجه راهبة خال من الاصباغ .. سألتهم عن الكرسي قالوا : انه كرسي احد السلاطين . تراه كان كرسي ابي ؟ هل قتلوه وهو جالس هنا ؟ شعرت بأن الامر لا يعنيني ، فأبي الذي أعرف كان حساباً في البنك ، وقد انتهى منذ نفدت نقوده ، ومات يوم سحبت آخر شيك ! ..

وتحدثوا طويلاً عن مشكلات الفلاح ... عن الصعوبات التي تواجه التأميم ... كان الأمر ببساطة ان هنالك شعباً يحاول ان يحصل على خبزه مع الكرامة والعدالة والمساواة ... وكانت صعوبة ذلك ترتسم عملياً في كل المشاهد التي تطالعني في الريف ... اطفال حفاة وشبه عراة يركضون وسط الطبيعة عزلاً كبقية كائناتها ...

مع جاعم وعثمان وعبد الباري واحمد تجولنا بين قرية المخزن وتخوم زنجبار وقرية الحصن وحصن غضنفر وجعار ... و... و... والاسماء تختلط في رأسي والصورة واحدة ... بؤس لا حدّ له ... تذكرت بحقد وانا ارقب

الاطفال العراة واجسادهم النحيلة كعصافير الشتاء الجائعة ، تذكرت الكلاب السمينة المدللة في جنيف المربوطة امام دكاكين باعة اللحوم بينما اصحابها يختارون لهم اشهى الوجبات والشرائح الطرية ... وشعرت بانني لن استطيع قط ان اعود الى جنيف لاعيش بسلام كأنني لم أر ما رأيت .. كانني حين ارحل من بلد الى آخر أرحل ايضاً من عصر الى آخر .. وهذا عصري !

وعدت ليلتها من جبال يافع البركانية الخامدة الى عدن ، وانا قانعة بان البركان الذي خمد في احشاء الارض قد استعر في نفوس ابناء هذه الارض وسرى نسغ النار والحديد في عروقهم ... لم يكن يفوق بؤسهم سوى رغبتهم في حماية طفلهم العظيم : الثورة .

عدنا ليلاً ... قال فضل : هل انت متعبة ؟

– بل حزينة ... حزينة حتى الوجع ...

وشدني من يدي ، ودخلنا الى المنارة الملاصقة للدار التي كان « يستشفي » فيها ... كانت رائحة زهر « الكادي » التي قطفها لي تفوح من صدري حيث دفنتها.. كنت اتأمل اصابعه وهي تقطف الازهار في الظلام وأكاد لا اصدق ... هذه الاصابع التي طالما توترت على زناد بنادق ورشاشات وشدت عليها لتطلق النار ، هذه الاصابع التي طالما التفّت حول مقبض خنجر في الظلام وتحفز صاحبها للقفز كفهد ، ها هو الآن امامي بالاصابع نفسها يقطف ازهار الليل والحب كأنه مخلوق اثيري من مسرحية « حلم ليلة صيف » لشكسبير ...

– الا تذهب ابداً الى بيتك حيث اولادك وزوجتك ؟ ...

قال لي كأنه لم يسمع سؤالي :

– كلي شيئاً من هذا « المقرمش » . لقد ابتعته خصيصاً لك كي تتعودي مذاق طعامنا ...

وتسلقنا المنارة ... درج طويل ، والجدران مدهونة بالاخضر مثل قاع البحر ... درج لولبي متماوج ، وانا اصعد، وبعد لحظات شعرت انني اسير

في دهاليز مدينة تحت قاع البحر ... انني في قارة منسية في الاعماق وحدي مع فضل ... ووصلنا الى القمة ، وكانت الاضواء تنعكس على مئات المرايا وعنها ، وبين المرايا وقف فضل ، وشاهدت آلافاً من انعكاس وجهه في المرايا المشهورة كالسيوف ، وآلافاً من عينيه تحدق بي ، تأكلني ، وشعرت بالدوار ، مددت يدي لأمسك به ولم ادر اي وجه من الوجوه في المرايا هو وجهه ... احتضنني وجرني الى الشرفة ... احاطني بساعده وسرت الرعشة في جسدي ، الرعشة التي لم اعرفها قط من قبل الا حين كنت اصاب بالحمى — حين كان يضمني رجال اوروبا كنت اشعر بالملل واحس بان اذرعهم قيود مملة ، وكنت اتسلى بمحاولة تخمين اسم عطرهم او نوع دخانهم ! — . وخرج معنا رجل المنارة العتيق الى الشرفة ، وكان النور ينطفىء ويضيء ، وقال بصوته الهرم الذي يشبه صوت الريح : ها نحن نطل على قارات وبحار ثلاثة .. هنا افريقيا ... هنا آسيا... حدقي جيداً في الظلام ترَيْ الهند ... والبحر الاحمر ... والجزيرة العربية ... واحسست بأن الزمان يقف ، والريح تنصت بفضول ... واحسست ان المنارة تكبر وتكبر حتى تغطي اليمن كلها وشبه الجزيرة العربية .. وتضيء وتضيء ، وثمة رجال مقنعون في الظلمة يرجمون المنارة بالحصى ولكن المنارة تضيء ...

سرنا على الشاطىء في الظلمة شبه المقمرة ... فضل يستنشق الهواء ملء رئتيه ... جلسنا على الارض فجأة منهكين ... قال لي : « آه كم انا متعب ووحيد ! » .

واغمد رأسه في صدري كما سبق وأغمد حبه منذ ذلك اليوم ، يوم اهداني خنجره ...

قال : لولا غرقي في العمل الوطني ، لقتلتني وحشتي كرجل ... ولكن ، هنالك لحظات يستيقظ فيها القلب الوحيد ... ويحس بحاجة الى امرأة حقيقية. احبك ايتها الشقية ...

واتحدت به فوق التراب والاشواك والحصى ... لا بل اتحدت بجسد

الارض وبجسده معاً ، كانا شيئاً واحداً يحيطني كشرنقة ، وكنت واثقة من ان الارض تحتي كانت ترتعش وتخفق كجسد حي وحار وندي ... واننا في لحظة ، صرنا ثلاثتنا شيئاً واحداً .. هو وانا والأرض ...)

المرضة تقول بغضب : لماذا رميت بكيس الثلج عن رأسك ؟ كفّي عن الحركة والكلام ... انك لا تتقنين فن المرض ...

وضحكت ... ضحكت كثيراً ...

تقول المرضة : كفي عن البكاء ... أنت مصابة بحمى مدارية هونغكونغية لا يحتملها إلا أبناء هذه الارض ... لقد قتلت هذه الحمى كثيراً من المستعمرين الذين جاءوا الى هذه الارض ..... ولكن الطب تطور ، وستنجين ..

واردت ان اشكر لها (لباقتها) وتطميناتها ، لكنني احسست ان حلقي مثل حنجرة مذبوحة ، ترفض الاصوات أن تغادره ...

اتمسك بصورة ريكاردو ، وأرى فيها صورة فضل ... فضل .. آه كم وكيف احببته ! .. انه لن يدرك قط مدى تعلقي به ... هنالك لحظات يقسو عليّ فيها ويعاملني كسويسرية ...

(خرجت من متحف «كريتر» .. على بابه مدفع عتيق عتيق نائم ، وفوقه نام حارس عجوز بدا لي كأنه والمتحف الاثري من جيل واحد ...

في الداخل الآثار تضج حياة واصالة ... عيون التماثيل من الاحجار الكريمة ، اكثرها مسروق — المستعمر الذي يسرق عيون ابناء هذه الارض ، لم لا يسرق عيون تماثيلها ؟ — ... آثار مدهشة الجمال الفني والرقي الانساني ... لاحظت ان تماثيلها كلها ترتدي الاحذية ، وتذكرت الحفاة في شوارع عدن وحزنت ... وانا اغادر المتحف ، مرت بي عن قرب امرأة مرعبة ... كانت ترتدي (الدرع) الاسود وقد غطت وجهها بمنديل اسود شبه شفاف ، مرقط بالألوان الحمراء والزرقاء والخضراء والصفراء برسوم وبقع عجيبة ، وبدا وجهها خلفه مشوهاً كما لو كانت في كرنفال هيبي ...

عدت الى فندق كريسنت ووجدت فضل في انتظاري كي أرافقه الى حضرموت ...

قلت له : المرأة هنا شيء مرعب ...

قال : « الدرع » الذي تكرهينه ليس دائماً حزمة من الكسل والبلادة وانما حزمة من المتفجرات احياناً . عام ١٩٥٤ كانت نساؤنا يحملن المناشير والمتفجرات والاسلحة تحت هذا القناع ، وقد قدمن خدمات هائلة للثورة قبل ان يكتشف جنود الانكليز الخديعة ... ثم ان المرأة في الريف كما رأيت حاسرة الرأس تعمل جنباً الى جنب مع الرجل ...

قلت : يجب تحرير المرأة ... ويجب تحرير الرجل من العادات والتقاليد التي تكبل الانتاج ... وتشل العمل وتزيد البطالة بطالة ... ألا ترى معي عشرات الرجال المرميين على الارصفة في الحر كالذباب المتلاشين جوعاً وفقراً ؟ يجب منع القات ... يجب ...

قاطعني بحدة : من السهل جداً ان تقولي يجب ويجب ويجب ان تفعلوا كذا وكذا ... انك تتحدثين « من الخارج » مثل اي خبير اجنبي او مستشرق . انك لا تعرفين كم نعاني ... وطريقنا طويلة ومشكلاتنا لا تحل بالفذلكات اللفظية ...

قلت بعناد : يجب تحرير المرأة على الاقل ومنع الحجاب ومساواتها بالرجل .

– لدينا نساء كثيرات متحررات ... ربما كان من مآسينا ان بعضهن استحلن رجالاً دون ان يلحظن) ...

اشهق .. ماذا حدث ! اين انا . الممرضة شبح ابيض . كادات مثلجة على جبيني من جديد ... ارجوك ... اتركيني لرحمة الحمى ... لقد تعبت ، والألم في كل موضع من جسدي .. في كل موضع شبت النار واشعر بأنني ازحف عارية فوق حقل من الجمر ... والذكريات تشتعل داخل رأسي كالجمر ..

(تجولت وحدي في شارع الزعفران ... ثم سرت طويلاً في الاسواق التي تذكرني بروائح ازقة الف ليلة وليلة ... مررت بجامع الشيعة وتابعت سيري ... ثم فجأة في زقاق تفوح منه رائحة التوابل والكاري والدفء الناتبي

احساس مرعب : انني كنت هنا قبلاً ! كنت هنا قبلاً ! سرت في هذا الزقاق ذات يوم ! وكان ذلك مذهلاً لانني اعرف ان هذه اول مرة آتي فيها الى عدن وامشي وحدي في شوارعها .. ومع ذلك امتلكني ذلك الاحساس الغامض الكثيف بانني اعرف الاحجار هنا ، ثم وجدت قدمي تقودانني الى باب معبد هندي ... وفجأة تذكرت انني رأيته قبلاً واين ... كان ذلك في حلمي منذ عشر سنوات حين كنت في الرابعة عشرة من عمري ! ... انه المعبد الذي دخلت اليه امي ولم تخرج وخلفتني وحيدة . اقتربت من الباب ، كان كبيراً وثقيلاً وسميكاً وموصداً ومن الداخل تفوح رائحة البخور ...

ظللت أفكر بغرابة ما حدث . ولما جاء فضل ورويت له ما كان قال لي بغيظ لم اتوقعه :

— دعيني من مشكلات ما وراء الطبيعة . لا وقت لدينا للاهتمام بها . نحن بحاجة الى الطعام والى السلاح ، ألا تفهمين ؟

في ملعب بحي كريتر ، كان الليل دافئاً ، وملمس الرمل تحت اقدامي على ارض الملعب طرياً وحنوناً ، وكلما هبت الريح البحرية ، المعطرة بالملوحة ورائحة ازهار غامضة تنبت سراً في الليل احسستني اركض في شواطىء مقمرة عتيقة عرفت امجاد صيادي اللؤلؤ من شواطىء هذه الارض ... وما زالت اصداء مجاذيفهم واغانيهم تنبثق في الالحان التي اسمعها على مسرح الملعب ... حيث اقيم حفل غنائي بسيط ... كانت هذه اول مرة اسمع فيها الغناء اليمني منذ طفولتي القديمة المنسية .. « احمد قاسم » يغني مع قرعات طبل انساني البداءة ، ودمعت عيناي وانا الحظ أن كورس الاغنية الوطنية اليمنية تتألف جوقتها من الاطفال ... كأن الكبار كلهم مدنسون ، والاطفال وحدهم جديرون بالتغني بالوطن والنطق بالفاظ لوثها الكبار . أغان مليئة بالحياة والحركة فيها تأثيرات افريقية ، والموسيقى خالية من النواح ... ووجدتني ارقص بقدمي وانا جالسة على المقعد .. قال فضل : لسنا في حفلة « جيرك » ولا في « مجمع هيبي » .. راقبي حركاتك ...

ولم اراقب حركاتي ... ولم ابال بالعيون التي بدأت تراقبني ... وحينما بدأت « رقصة اللوعة » ـ الدبكة اليافعية ـ قررت ان اصعد الى المسرح وادبك مع الراقصين ...

جرّني فضل بيده قائلاً : هيا بنا ...

سارت السيارة بنا في الخلجان المعتمة ومررنا « بإلفنت بوينت » ، حيث كان يحلو للانكليز اقامة (الفيلات) ، وشاهدت فضل يصرّ باسنانه ...

قلت له : هذا المكان يشبه كابري في النهار ... وهذا الخليج من اجمل شواطىء العالم ...

ولم يبد عليه انه يبالي بالجمال الطبيعي للمكان ... كان البؤس البشري يسري مثل النار في الوطن وهو والرفاق يكافحون على اكثر من جبهة ...

بدا فضل متعباً ... درنا بالسيارة طويلاً وهو صامت .. مررنا بمقهى يدعى « عروسة البحر الاحمر » . أصررت على الدخول . قلت له انه مصاب بالازدواجية وانه يخشى ان يرانا الناس منفردين في مكان عام .

دخل معي على مضض . لم يكن هنالك « اناس » كي يرونا . كان المكان حزيناً وفارغاً ، و « عروس البحر الأحمر » عانس تماماً ... وكان مكان (الباند) الفرقة الموسيقية فارغاً وآلاتهم قد سكنها العنكبوت والصمت .. احسست بوحشة وضيق .. سألت فضل : اين (الباند) ؟ قال : في الحقل يحرثون الارض او يصطادون الاسماك . لا مجال لدينا لتفاهات المجتمعات الاستهلاكية ، ولكنك فيما يبدو تحنّين الى هذه الأجواء . تعالي ...

جرني من يدي وفي وجهه تعبير من يريد معاقبتي ..

قال بسخرية : سآخذك للعشاء في (روف روك هوتيل) . إن اصالتك تغادرك من وقت الى آخر ... رغم انتسابك لحزب يساري في اوربا ، ولكنك لا تملكين بعد النقاء الثوري الحقيقي المطلوب هنا ... يبدو ان يسار البلدان المرفهة يمين ! ...

مطعم « فندق روك » يقع في الطابق الاخير للفندق الكبير . يطل على

ميناء عدن المشلول الذي نامت فيه السفن القليلة الباقية منذ اغلاق قناة السويس ، ومن هناك بدت عـدن حفنة من الاضواء الملونة الموشوشة بين التـلال وخاف الخلجان .. المطعم مثـل اي مطعم غربيّ ، اوهذا ما خيّل إليّ للوهلة الاولى .

اوركسترا تعزف ، وراقصون وراقصات ، واسرة انكليزية تبدو سعيدة تلتهم (اللوبستر) الكركند وتستعمل كل « الآلات الجراحية » و عدة الأكل .. وعلى الجدران اقنعة نحاسية لوجوه بشعة ... والسقف مضيء بأضواء مختلفة الألوان كأنها النجوم الملونة ... ومع ذلك كان هنالك احساس غامض بالضيق يغمرني ... كنت اشعر ان هذا المكان شيء مضحك وسط قارة البؤس المحيطة به ... فيه مباهج الحياة ، لكنه محاصر بكل قسوتها وتحدياتها .. ولا احد يستطيع ان ينسى في الداخل ما يدور في الخارج ...

بعد قليل ، دخلت مجموعة من الشبيبة العدنية بالثياب المحلية ، والقمصان السبور ، وخيل اليّ أن الخناجر تتدلى من تنانيرهم العدنية ...

التقت نظراتهم بنظرات فضل ... التهب في العيون ما يشبه الشعور بالذنب ... خرجوا من المكان ... وبعد قليل غادرناه نحن ، والمصعد يهبط بنا ، شعرت بانني لا اهبط ستة طوابق فحسب ، وانما ارحل من ارض الوهم لأعود الى ارض الحقيقة الصلبة والواقع ... فعلى باب الفندق لاحقنا حتى السيارة شحاذ عاري القدمين . واوصلني فضل الى الفندق وغضب شرس يشع منه ، ولم يقل كلمة واحدة) ..

من جديد توقظني الممرضة بكماداتها الباردة ... ارجوك .. دعيني .. قلت لك ان لا شيء يجدي ... ما زلت ازحف عارية فوق الجمر ، واحس انني بدأت أنهي مسيرة العذاب ... واتلاشى ....

متى يأتي فضل ؟ سأقول له مرحباً ... مرحباً ... مرحباً العدنية ، الكلمة المسحورة التي تعني اجل ، واتفقنا ، وأهلاً ووداعاً ... « مرحباً » تلخص الحكاية كلها ...

(مرحبا فضل ...

كنا في الطريق الى لحج ...

مرحبا ابين .. يافع .. زنجبار .. حضرموت .. مرحبا

مرحبا فضل ...

قلت : حول القضايا الدينية يجب ان ...

قاطعني بشراسة : لا اريد ان اسمع منك كلمة يجب ، بعد هذه الرحلة الى لحج ، تكونين قد عرفت وطنك ، ومن الغد ، تغادرين الفندق ، وتعملين معنا وتكسبين رزقك وتقطنين مع أمي وتستعيدين جنسيتك ... أو تعودين الى جنيف وريكاردو وكلبكما المدلل . لسنا بحاجة الى « محاضرين » ، نحن بحاجة الى عمال ... هل تفهمين ؟ .

وفهمت ... كانت الشمس المحرقة تجلد الطريق ، والغبار يتسلل الى حلقي وانفي ، والدموع بدأت تسيل من عيني ... ضحك بقسوة كأنه يرقب حيواناً قطبياً يمضي يومه الاول في خط الاستواء ...

واخيراً بدت لحج بلدة غارقة في الرمال ، فيها حزن صخري جاف ، واعمدة من الغبار المضيء تنتصب بين ازقتها والشمس ... وشعرت بدوار ... وبدأت الاشياء تهتز ، الدكاكين الصغيرة الفقيرة ، والاقمشة المعروضة ، والزنانير الجلدية الحاملة للرصاص ، وصور عبد الناصر المعلقة خلف اغصان القات الخضر ، والعنزات التي كدت اتعثر بها ... وانحرفنا عن الطريق العام الى الازقة الاكثر فقراً من الفقر ، وطاردنا بعض الاطفال وكانوا فرحين برؤية فضل وسألهم السائق كيف تعرفوا عليه قال أحدهم ساخراً منا « شفناه بالدرزان » ... (أي بالتلفزيون) ... كان مدهشاً أية سخرية وحيوية وعناد يتمتع بها اولئك الاطفال ! كانوا يقفزون حولي كالشياطين الصغار ، وكنت اتلاشى تحت اعمدة الشمس المدارية ، اتلاشى ... الأصوات تروح وتجيء كأنها قادمة من بئر بعيدة ... طفلة صرخت وهي تتأمل ثيابي بدهشة .

« ياسين علينا » ...

« ياسين علينا » ... وسمعت صوتها يعلو ويعلو ، وشاهدت عشرات العيون الصغيرة المستديرة تحدق في وجهي ساخرة وشرسة وهي تزعق « ياسين علينا » ... وتمسكت بجدار معصرة الزيت العتيقة ، ثم شعرت بأن البناء العتيق كله يدور معي، يدور يدور ... ثم تحول العالم الى صفائح فضية لماعة حادة تنغرس شفراتها في عيني . واستحال كل ما حولي الى وهج ابيض شرس حار لا متناه ...

امسك فضل بيدي وجرني الى السيارة ... لا اذكر بالضبط كيف عدت ، كل ما اذكره هو انني شعرت بأنني كنت أسير على ارض صخرية ثم تحولت الى رمال سائبة وانني بدأت اغوص تدريجياً في الرمال وان الرمال بدأت تندفع الى فمي وحلقي ... وانني اختنق ...

اذكر انني فتحت عيني .. كانت السيارة تركض وسط غيمة من الغبار ، ثم انفتحت هوة تحتي ، وبدأت اسقط في بئر بلا قعر) ...

الممرضة تقول : جاء الطبيب ....

عبر ابخرة الحمى عبثاً اتبين وجهه . حتى صوته يخيل الي انه قادم من قاع بئر ... يتحدث الانكليزية واتميز من لكنته انه هندي او باكستاني .... يتحسسني ... يقول اشياء كثيرة للممرضة .. يضعون على وجهي كمادات لا ادري ان كانت حارة او باردة ... احس بحركاتهم السريعة حولي كأنهم يحاولون حصار كوم من الرمل بدأ يتسرب من بين ايديهم الى هوة ما ... يغرسون في جسدي ابراً ... ثم يهدأ كل شيء ويتركونني وحدي واسمع صوتاً يقول آه واميز فيه صوتي ... وافتح عيني فجأة .... كما يستيقظ النائم حينما يقترب منه من يريد اغماد خنجر في جسده ، بهذه الحاسة الغامضة استيقظت..

كانت تقف امامي سيدة جميلة جداً، كاشفة الرأس ، ترتدي الملابس العدنية وقد سقطت الملاءة السوداء عن كتفها ...

كانت تتأملني . ولم تكن تحمل خنجراً وانما ابتسامة ... ومع ذلك لم

يفارقني حسي بالخطر . نهضت في فراشي . الى جانب الفراش وسط مجموعة الادوية كان هنالك الخنجر الذي اهدانيه فضل ، خنجر الجدار في بيته قرب الخليج ... وايضاً لسبب اجهله مددت يدي لأخفيه عنها ، وكانت نظراتها تتابع يدي . فتظاهرت بالامساك بورقة وقراءتها ... كانت وصفة الطبيب الذي عادني في غيبوبتي فيما يبدو ... وقرأت في اعلى الوصفة عبارة « الله هو الشافي » ...

ولا ادري لماذا خيل الي انني اسمع صوت الغراب يحاول ان يقتحم النافذة الخشبية ...

قالت لي السيدة بانكليزية صافية :

– انا زوجة فضل ...

لم ارد .

قالت : اذن انت الصحفية السويسرية التي علق بها مؤخراً ؟

لم ارد .

قالت : كنت أتصورك شقراء زرقاء العينين ... فرجالنا يحبون احياناً امتلاك النساء الشقراوات رداً على امتلاك المستعمر لكثير من نسائنا ايام القهر ...

بدت الحيرة في وجهها امامي . اذن لا تعرف أنني يمنية مثلها ؟ اذن لم يحدثها عني ؟

تابعت بصوت هادىء وجامد ما هو بصوت امرأة ولا رجل ، انما صوت كائن هجين :

– لا فرق ، شقراء كنت او سمراء . جئت انصحك بالعودة الى بلادك . جسدك الذي يعتاش على الجونبون والفيتامينات والبنسلين لا يستطيع احتمال امراضنا وجراثيم بلادنا ... ثم انني اعتقد ان علاقتكما طالت اكثر مما يجب .. وقد تسيء الى سمعة زوجي ومركزه في التنظيم . انصحك بالسفر فوراً ... الانفلونزا لدينا مرض لا تحتمله اجسامكم ... جوعنا ، ومتاعبنا ، ومآسينا

ومناخنا ، وحتى اوبئتنا ، لا تحتملها اجسامكم الهشة ...

كان في صوتها شيء رجولي وبارد . فتحت عيني ، وكانت صورتها الجميلة تقترب مني وتبتعد عني ، كان لها شكل امرأة جميلة جداً ... ومع ذلك كان هنالك شيء ما يشوه هذه الصورة .. شيء لا استطيع تحديده وسط أبخرة الحمى والدوار والمروحة التي بدأت تمزق دماغي ... وبدأت اصرخ : اوقفوا المروحة .

قالت بصوت بارد : المروحة لا تدور . انها واقفة ...

وكنت اراها تدور بسرعة شيطانيـــة . واحسستني مربوطة الى إحدى اذرعها ، وهي تدور بي تدور تدور تدور تدور .....

تتابع : كل شيء في حياتي وحياة فضل منظم . انا بالمناسبة زوجته الثانية . هنالك زوجته الاولى ومهمتها انجاب الاولاد . انا مهمتي « النضال الثوري » . انني اشارك زوجي كل اعماله ومهامه وحتى رحلاته حين يكون لدي وقت . وليس من عادتي ان اتجسس على اخباره ولكن هذه اول مرة لا يحدثني فيها عن مغامراته ، ولذا جئت لأراك ... هذا كل ما في الأمر ... بالمناسبة ، هل تحبين ان احجز لك على أول طائرة ؟

(أن أرحل ...

ان لا اراه بعد اليوم ؟ ..

وهذه الارض التي احببتها بكل فقرها ووجعها وانينها وشراستها ، لا اراها بعد اليوم ؟

ان اعود الى جنيف ؟ ...

ان اتحرك في شوارعها التي تفوح منها رائحة النظافة المعقمة كما في المستشفيات ؟ ...

ان اعود الى ريكاردو ؟ ..

ان أبدل عقارب ساعتي من جديد ، فاترك ساعة لتوقيت فضل ومواعيد نومه ويقظته وعمله ، وساعة لتوقيت جنيف ؟

ان أجد نفسي غداً في جنيف ، حيث الثلوج تغطي كل شيء ؟ ... ان اسير في الشوارع الى النهر ، ثم الجزيرة الصغيرة ، وسط النهر حيث البط الابيض الكسول يتثاءب وينظف ريشه ، والحارس العجوز يروي لي من جديد مغامراته زمن الحرب التي اعرف انه لم يخضها لكنه يحلم بها هرباً من رتابة رفاهيته ...

أن يضمني ريكاردو بعد ان اثمل في احدى الحانات ؟

سأفكر بفضل ... بعينيه في ذاكرتي وشماً من جمر ... ساركض في شوارع جنيف مجنونة ... ساركض الى ساعة الزهور ، تلك الساعة الكبيرة التي رقعتها ارض من الحشائش، وارقامها زهور، وعقاربها تزحف فوق هذا المرج ... ساركض اليها ... وسأحاول ان ابدل توقيتها الى توقيت فضل .. توقيت عدن .. توقيت مئات آلاف الكادحين .. توقيت الجياع ماضغي القات رغم الخنجر في يدهم ... توقيت الذين سرقت اوروبا منهم زمنهم وها هم يركضون كي يلحقوا بزمنها ...

اجل ...

ساركض الى ساعة الزهور ... سأقطف كل الزهور وابصق عليها ... لا يحق لأية ارض ان تزرع الزهور اذا كان القمح في أي مكان من هذا العالم غير متوفر ... وسأوقف عقارب الساعة ... ستمزق يدي مسنناتها الحادة ... وسيركض رجال الشرطة وستستنكر الصحف هذا الاعتداء الهمجي ... وعشاق العصافير الذين خرجوا يتظاهرون في شوارع جنيف يوم قررت لندن ابادة الحمام فيها ، سيتظاهرون ضدي ... ولن يخطر ببالهم قط ان يتظاهروا من أجل شعوب سرقت أموالها لتودع في مصارفهم ، ومن أجل شعوب تباد بالقنابل) ... فييتنام ... جنيف حيادية ... لا ... الحياد غير ممكن في هذا العالم الوحش ... من ليس معي فهو ضدي .. لماذا لم يحدثني فضل عن زوجته ؟ لماذا لم يقل انها اذكى مني ؟ مثقفة وجميلة ... ماذا يريد مني ؟ لماذا قتلني بخنجره الهدية هكذا ؟ لماذا ازدواجيته هذه ؟ اهذي ... انني اهذي

ولا استطيع ان اتوقف ..

المرضة تضع جبلاً من الجليد فوق رأسي . الألم يمزق كل عضو من اعضائي ... اوقفوا هذه المروحة ... ارجوكم .. كفى .. كل ذراع فيهـا مقصلة ... الغراب جاء ... يضرب النافذة بجناحيه ... يأكل خشب النافذة بمنقاره ... يفتح دربه إليّ ....

فضل جاء ...

فضل جاء ...

تقول الممرضة ذلك .

فضل. جفوني ثقيلة مثل ستائر مسرح يمتد على طول الافق... ولكنني أراه ...

ــ حبيبتي لم اكن اخدعك . اعرف ما يمكن ان تكون قد قالته فاطمة . عرفت انها جاءت لزيارتك . لم اكن اخدعك . احبك . وستبقين الى جانبي .. وسيعاد غرسك في ارضي ..

كيف ؟ وأنا نبتة . كما قالت زوجته ، لن تقوى على المناخ والتربة ؟

ــ حبيبتي . لم اقل لك انني متزوج لانني لم الحظ ذلك !... المرأة الاولى في حياتي تزوجتها وانا في السادسة عشرة من عمري . المرأة الثانية اردت منها ان تكون شريكتي الفكرية لكنها ليست امرأة ... هل تفهمين ما اعني ؟ انها رفيقتي بل رفيقي في التنظيم ، لكنها ليست امرأة ...

انا ثائر لكنني رجل . عبثاً قلت لها انها مشوهة كما زوجتي الأولى مشوهة .

الاولى رحم متحرك . والثانية بلا رحم .

إني بحاجة الى امرأة واحدة تمنحني الشيء ، الذي تمنحونه لي انتن الثلاث ... اني احب ثلاث نساء في وقت واحد كي اصنع منكن امرأة واحدة ...

هل تفهمين ؟ لم اكن اخدعك ... ولم اخدع أحداً .. المأساة اننا قبل الثورة لم نكن نكتفي بامرأة واحدة . كنا بحاجة الى ثلاث نساء .. وها نحن بعد الثورة بحاجة الى ثلاث نساء ... فالمرأة لم تتعلم بعد كيف تستعمل رأسها

دون ان تتعطل انوثتها ..

هل تستطيعين يا حبيبتي ان تكوني ثلاث نساء ؟..

امرأة واحدة تكفيني ، على الا تكون معطلة الانوثة ولا معطلة الرأس ..

هل تفهمين ؟ هل تفهمين ، هل تستطيعين ؟

وشعرت بأنني لا استطيع ان اكون اي شيء إلا ما انا عليه ... كنت اصير شفافة .. وشعرت بأن اجنحة لامرئية تنبت لي .. وانني استعد لرحيل بعيد بعيد ... وغاب صوت فضل ولم اعد اسمع سوى صوت الغراب يضرب نافذتي بشدة ويحفر الخشب بمنقاره مثل الحفارات الآلية التي تخترق الصخر .. ولم اكن خائفة ولا فرحة .. كنت فقط انتظر ... وفي انتظاري كنت اشعر انني كمن سيطلق سراحه ...

افتح عيوني ... الظلمة تقطن الخص الخشبي ، واصوات الشارع ميتة تماماً وحواسي كلها يقظة وصافية كما لم تكن ابداً .. بوضوح مذهل اعي كل شيء وارى كل شيء ... ها هو فضل مرمي في الكرسي وفي وجهه دموع جافة ... اكثر من طبيب في الغرفة ... اكثر من ممرضة ... انابيب مغروسة في ذراعي ... اذن يحاولون ضخ الحياة الى عروقي ... ها .. كل شيء مضحك... لا .. ليست الظلمة دامسة خلف النافذة... اذن انقضت ليلة كاملة ..

لا اشعر بأي ألم ... احس بأنني شفيت من امراضي كلها نهائياً .. اني .. اشف ... ارق ... اشعر انني كمن يطلق سراحه من كل قيد ... انه الفجر بدأ يضيء ، منقار الغراب ما يزال يحفر خشب النافذة بهدوء .. انني لا اسمعه ولا اراه لكنني اعرف انه هناك ...

ها الغراب قد استطاع ان يفتح فجوة في الخص الخشبي ... انه ليس غراباً كما كنت أظن .. انه شيء لم يخطر ببالي من قبل .. ها الفجر الرمادي يتدفق في الغرفة تدفق مياه البحر الى غواصة ثقب جدارها ....

ها انا اتسرب معه عبر النافذة...

الساعة ٤ ليل ٢٣ – ١ – ١٩٧٣

عذراء بيروت ١٩٧٣

امام المرآة الكبيرة في جناح « العرسان » بالفندق البيروتي الكبير أجلس . الحلاق الشهير الذي كنت اقرأ عن فضائحه وسيدات المجتمع في الصحف ينسق شعري . انه وسيم وسيكون لي معه قصة بعد ان انتهي من شهر العسل الممل السمج . لم لا ، وانا سأصبر سيدة مجتمع مثلهن . لا . بل اجمل وأفتى . وزوجي المغترب الكبير اكثر ثراء من ازواجهن .

(لماذا ناديتني تلك الليلة يا علياء ؟ ... لماذا اردتني أن أشهد مصرعك المروع ؟ اسرتك حولك مثل أكلة لحوم البشر ، والخنجر في يد والدك وزجاجة الديمول في يد أخيك يدفع بها الى فمك لتشربي وأمك سارعت الى نافذة الشرفة لتغلقها ، وانا اختبأت في ظلمة الشرفة التي كنت قد قفزت اليها من شرفة غرفتي الملاصقة لغرفتك حين سمعت صوتك يناديني ، وعبر ثقوب الخص الخشبي شاهدت ذلك البريق في عينيك حين شربت السم بملء ارادتك ، ذلك البريق الذي أكد لي انك اخترت السم لأنك اردته ، كما ذهبت الى وسيم للمرة الثانية لانك أردته ... وشربت الزجاجة كلها ... لماذا كانت الريح باردة هكذا ، باردة تخترق اللحم والعظام والاعصاب وتذكرني كم هو بارد تراب المقبرة حيث ستكونين في الغد ؟ .. بعدها بدقائق ، قرع الباب والدك وامك وشقيقك ، وظننتهم قد ندموا على ما فعلوا ، وجاءوا يطلبون النجدة ، جاءوا لاستعمال هاتفنا لطلب سيارة اسعاف لانقاذ حياتك ...

لكنهم دخلوا كعادتهم ... وقالت أمك لأمي كعادتها : جئنا نرى برنامج « ..... » في التلفزيون . ولم يكن في وجه أي من افراد اسرتك تعبير ألم واحد ، بل على العكس ، كان في وجوههم راحة من أدى واجبه ، وكان

في عيني ابيك البريق نفسه الذي شاهدته فيهما يوم عاد من اداء فريضة الحج ..
وكان اسم الحلقة « شرف البنت » او شيء من هذا القبيل، وعلى الشاشة ظهر المذيع « وسيم » . يتحدث بهدوء ويبتسم بدقة . دون ان يدري أنه في هذه اللحظة بالذات تحتضر امرأة لانها احبته ... ولانها رفضت ان تبوح باسمه ..

لماذا ناديتني تلك الليلة المروعة يا علياء ؟ ... صرخة واحدة حادة مزقت صوت الريح والعاصفة ... جلست اسرتك ترقب التلفزيون ، وجلست انا متحجرة عاجزة عن الحركة ... أتأمل وجه وسيم واكتم سرنا المشترك ... حبنا المشترك . رغم زعيق التلفزيون وتعليقات امي وامك ، كان يخيل الي انني اسمعك وانت في غرفتك تحتضرين ، وربما تقرعين الجدار المشترك بين غرفتي وغرفتك ، وتحاولين نقل رسالة الي كما يفعل السجناء عبر جدران زنزاناتهم ... وفهمت الرسالة ...

لا ادري كيف لم اصرخ ... كيف لم اركض لانقذك. كيف شاركت في جريمة التستر . كيف استطعت أن أظل صامتة جامدة ، وفي رأسي تصاعدت ابخرة سود كأنما انفتح في دماغي شق من شقوق الجحيم ، وها هي الغيمة السوداء تحتلني الى الأبد ... كنت اعرف أن جسدك يختلج وينتفض كجسد طير سقط في الجليد بعد أن اصيب بطلقة صياد لن يبالي حتى بلم جثته ... بدلاً من ان اهرع لانقاذك ، هرعت الى المطبخ واعددت القهوة لاسرتك كأية فتاة مهذبة فاضلة تعرف كيف تعني بزوار أمها ... واضفت للقهوة كثيراً من السكر ... كثيراً من السكر ...

لم اجرؤ على الانسلال الى غرفتي ... لم اجرؤ على ان اقفز من شرفتي الى شرفتك ثانية . لم اجرؤ على ان اراك باردة هامدة . لم اجرؤ على ان اسمع كلماتك الاخيرة . ففي تلك اللحظة شعرت انني ارى ملايين السكاكين التي يحملها رجال بلادي ، وملايين من زجاجات الديمول في المستودعات ، المعدة لقتل النساء والفئران ... ووعيت للمرة الاولى موقعي من كل ما حولي ومن حولي ... وسكنتني الغيمة السوداء) ...

ها هي أمي تدعك « بالكريم » ساقيّ وهي تزغرد وتعدني وليمة شهية للرجل الذي سيحتلني ويحل في جسدي على الرحب والسعة ... أتأمل يديها واعرف انه كان من الممكن لها ان تحمل بهما زجاجة « ديمول » لترغمني ذات ليلة على شربها ... وابي الذي يهرول في ردهات جناحي بالفندق يفتح الهدايا بسكينه الصغيرة ويطلق من آن الى آخر شهقات ارتياح واعجاب بالهدايا الثمينة . كان يمكن له أن يوجه السكين نفسها الى صدري .. لو لم ... لو لم افهم اللعبة بسرعة ... واتعلم ...

لو لم تحتلني الغيمة السوداء ...

لو لم اخف عنهم الحقيقة ...

الحقيقة ؟ ...

من يأبه بالحقيقة ؟ ...

ثم ، ما الحقيقة ؟ ...

هل احببنا « وسيم » حقاً ؟ ... هل كان حبنا حقيقة ؟ ... أم اننا ذهبنا الى شقته تحت تأثير نداءات تلك الكاتبة التي تجاوبنا مع صرختها بأن تمنح كل شيء للحب ، وان نتمرد ، وأن نعيش بصدق ؟

هل احببنا وسيم ، ام أحببنا التمرد ، أم احببنا العالم الذي كانت تنادي به الكاتبة لين ؟ ...

(اشترينا كتابها خلسة . اخفيناه عن اهلنا بين كتبنا . فقد شاهدتها اسرتانا في مقابلة تلفزيونية ، بشعرها الغجري ، وأثارهما انها أصرت على التدخين ، وانها تحدثت عن الحرية والثورة الجنسية وضرورة تحرر المرأة ، وقال ابي ان الرقابة يجب أن تمنع مثل هذا الافساد ، ودهش ابو علياء كيف يلقبونها بأديبة مع انها قليلة الادب بدليل أنها تدخن ، ولم يناما الا بعد ان كتبا رسالة احتجاج الى التلفزيون والى احدى الصحف ، وحذرانا من قراءة كتبها أو اي حرف تنشره في المجلات تحت طائلة العقاب الشديد ، أي اخراجنا من الجامعة ... وكنا قد نجحنا في الدخول الى الجامعة بعد معركة عنيفة دامت طوال

الصيف ، ولم يكن قد انقضى على العام الدراسي اكثر من شهر ، ولم تكن لدينا القدرة على مواجهة زوبعة جديدة ...

وتناوبنا قراءة كتاب لين .

كانت الشمس تشرق من صفحاته ... كل سطر فيه دعوة الى الحياة والى التجربة والى الحب ، والى التخلص من خدرنا الاجتماعي الذي نتوهم انه حياة ... كان دعوة الى الحياة الحقيقية والا فالموت افضل ...

وكان وسيم ...

شاهدناه على شرفة « بناية البستان » المواجهة للجامعة ... صرنا نتعمد اختيار مقاعدنا في الصف بحيث نكون قادرتين على رصد نوافذه ، وستائره البنفسجية التي تسدل عادة بعد ظهور احدى الجميلات على شرفته وشربهما كأساً من الويسكي (كنا نظنها ليمونادة يومئذ) ثم يتبع ذلك دائماً اسدال الستائر اكثر من ساعة ، وكنا ننسى ما يدور في الصف ، ونطلق خيالنا الى ما وراء تلك الستائر الليلكية نتخيل ما يدور ... نتخيل شفتي وسيم اللتين نعرفهما جيداً حين تتكوران في التلفزيون امامنا بينما هو يتحدث ، ونتخيله وهو يطبق بهما على شفتي الزائرة المجهولة ... وكانت الستائر تخفق ، وانفاسنا تتسارع وتضطرب ، والستائر ترتجف ، تهيج ، تجن ، ونحن عبثاً نطفىء النار التي انبثقت في مسامنا كلها ... واخيراً تهدأ الستائر حين يرفعها ، ونسمع صوت انزلاقها – او يخيل الينا ذلك – حاداً وقاطعاً مثل سكين تمزق خيمة ، وتنتهي مسرحيتهما التي كنا نشارك فيها دون ان يدريا ... بل ربما كنا نرتجف ونتمزق اكثر من تلك التي يضمها خلف الستائر ... كنا المتفرجين الذين يعيشون المسرحية اكثر مما يعيشها ممثلوها ...

لذا لما كنا نلتقي به امام مدخل البناء صدفة ، كنا نبتسم له بخجل وود خائف ، كاننا شركاء في عمل واحد شهواني .

وكان يطل من عينيه حين نحدق به تواضع مصطنع ولطف مسرحي مثل تلك النظرة التي تطل عادة من عيون المشاهير امام الناس العاديين حين يحدقون

بهم كانما يقولون لهم : لقد عرفناكم ..

ولذا لما تجرأ ودعانا الى بيته لشرب الشاي ريثما يحل موعد الصف – وكان موعد الصف بعد ثلاث دقائق – كان صوته مستريحاً ، بل وفيه بعض الضجر والتعالي ... وصعدنا معه دون تردد ... كنا نموت شوقاً لرؤية ما وراء الستائر البنفسجية ... لرؤية المكان الذي نتعرى فيه ونُقَبَّلُ ونستسلمُ ونحيا ونمنح ونشهق ونلهث ونرتعش بينما نحن في الصف ...

دخلنا ...

ولم يخيب المكان احلامنا ...

كان صَدَفَةً بنفسجية ...

الجدران ... الأرائك ... الأضواء ... مزيج مسحور من الأسود والبنفسجي والموسيقى كالإضاءة لا تدري من اين تنبعث ... وغرفة النوم ، الستائر بنفسجية كالجدران ، والسقف اسود ، وملاءة السرير سوداء ، بنفسجية الوسائد الحريرية ...

كان حلماً عجيباً ...

حلماً اشتركنا فيه علياء وأنا بكل براءة ... ببراءة لا تعرف الرغبة في الامتلاك او الاحتكار ... ببراءة لا ترفض المشاركة ... وكما ان الطفل لا يبكي لان الشمس تشرق لسواه ، كذلك لم يضايق علياء أن تذهب الى الصف ، واذهب انا الى وسيم على ان نتبادل الادوار في اليوم التالي ! ...

سألني : هل أنت عذراء ؟

قلت بدهشة : طبعاً . لماذا ؟ ...

بدا عليه الضيق ، وتأفف ثم قال هذا لا يهم . سنحتاط للأمر . لا تخافي ، سأكون حذراً .

قالت لي علياء في الاسبوع التالي انه سألها السؤال نفسه ، وابدى الضيق نفسه .

صدر كتاب جديد من تأليف لين . اشتريناه . قرأناه .بعد اسبوع قالت لي علياء : مريم ، لم أعد عذراء .

قلت لها : وانا ايضاً . ولكن الأمر لا يهم .. كل ما في الأمر انني لاحظت بعد ذلك ، وللمرة الاولى ، ان السرير البنفسجي الذي كان يحتويني كحلم ، كنجمة تطير بي ، صرت الحظ صريره الحاد تحتي ، وبدأت الحظ انه مجرد سرير حديدي .

بعد شهر قالت لي علياء : وسيم لا يريد أن يراني . يدعي انه يريد مني ان التفت لدروسي فقد اقترب موعد الامتحان .

قلت لها : وأنا ايضاً .. لاحظت فتوره .

انقضى اسبوع . وعادت الفتيات يظهرن على شرفته والستائر تسدل ... وترتعش ... حتى جاءته هي ، الممثلة المشهورة .. كنا في الصف حين شاهدناها للمرة الاولى ... خيل الينا أننا نعرفها ، فقد كنا نراها تمثل في احد برامج التلفزيون ... تلك الليلة عرفنا للمرة الاولى الغيرة . كل الناس كانوا يبدون لنا غير حقيقيين وبالتالي لا يمكن ان يثيروا حبنا او غيرتنا إلا أشخاص التلفزيون والروايات والقصص ... وحدهم كنا نحس بهم حقيقيين وبالتالي نغار ... ونحب .. كل النساء اللواتي شاهدناهن على شرفته لم يثرن غيرتنا ... كنا نحس انهن مجرد وهم ....

أما هذه الفتاة التي شاهدناها تمثل فقد كانت من طينة بطلات الروايات مثل بطلات قصص لين ... كانت حقيقية بالنسبة الينا ..

واكلتنا الغيرة ...

وتعذبنا ...

لا ادري كيف خطرت لي الفكرة . كنا ببساطة نتعذب ، وكان لا بد لأحد من ان يكون مسؤولا عن عذابنا – اي « أحد » ما عدانا – وقلت لعلياء : سنذهب الى لين . هي مسؤولة عما حدث ...

وقالت علياء وقد غرقت في تفكير عميق : لا يا مريم . لا اظن ان لين

هي المسؤولة ... ولكن فلنذهب اليها على اية حال ... اريد ان اراها واتحدث اليها .

بيتها كان صغيراً . بسيطاً . يكاد يكون فقيراً لولا جمال مشهد البحر خلف النوافذ . لا اثاث فيه سوى اوراق وكتب واسطوانات متناثرة فوق (موكيت) زيتي ، وفراش صغير على الارض مغطى بفرو الارنب في ركن الستوديو يتمم لوحة الفوضى حولها ...

كانت جميلة ، ولا تبدو اكبر سناً منا بكثير ... دخلنا ، ارتبكنا ، لم نقل شيئاً . صرنا نتهامس . قالت لين بفظاظة : آسفة ، ولكن لدي عمل انهيه للمجلة التي اعمل بها . لا وقت لدي اضيعه ريثما تنتهيان من همساتكما . ماذا تريدان مني ؟

قلت لها فجأة : انت مسؤولة عما فقدنا ! ... هذه علياء وانا مريم ولم اعد عذراء ولا هي ، وقد فعلنا ذلك كله تحت تأثير حروفك وتعاليمك .. ماذا تملكين لنا الآن . ماذا نفعل ؟ ..

انفجرت لين تضحك. تضحك. ثم انصتت بهدوء بينما رويت لها الحكاية.

قالت : اذن القضية انكما فقدتما الرجل الذي تحبان لانكما منحتماه نفسيكما ؟ هذه مشكلة طبيعية لا بد وان تمر بها كل فتاة متحررة في مجتمعنا الانتقالي هذا ، فالرجل الشرقي ما يزال يخاف المرأة التي تمنح ... انه ما يزال يتوهم الحب والعطاء تهتكاً وهو لذلك لا يتزوج المرأة التي تحبه وتمنحه ذاتها ، وانما يفضل التي يشتريها ، فذلك يمنحه حساً بالامتلاك والأمان اكثر ... الحل ؟ لا حل لجيلنا ... لا مفر للمرأة من ان تعيش هذه التجربة المروعة مراراً وتكراراً ريثما ينضج الرجل ... وتستعيد عواطفه انسانيتها ..

قالت علياء بنفاد صبر : لم أعد عذراء . هل تفهمين معنى ذلك ؟ سيقتلني أهلي لو علموا ! ...

وبكيت بدوري :لقد فقدنا عذريتنا . هل تفهمين معنى ذلك بالنسبة لنا ..

وانفجرت لين تضحك وتضحك . ملأت كأساً من الويسكي وبدا في عينيها حزن حقيقي ناء ... قالت باستخفاف : إذن هذه هي كل المشكلة ! .. بسيطة ... كنت اظنكما تتألمان بشكل اعمق ... اذن كل المشكلة هي عذريتكما اي لو عدتما عذراوين لانتهت مسؤوليتي ، وانتهى عذابكما ...

صرخت علياء : طبعاً .

قالت لين : يا غبيتان ! . الا تعلمان أن التكنولوجيا حلت مشكلة البكارة ؟ وأن اية مومس من « حي المتنبي » تستطيع ان تعود عذراء بـ ٣٠٠ ليرة لبنانية ؟ ... الطب الحديث حل هذه المشكلة ... يستطيع الطبيب ان يخيط لكنّ ما تمزق ، اذا كان كل ما تمزق هو اغشية جسدية ! .. كنت اظنكما تبكيان تمزقاً أعمق ... تمزقاً في لحم الروح ... تمزقاً في اعصاب النفس ... بسيطة .

وتناولت الهاتف وهي تقول : لدي طبيب صديق ، سيجري لكما العملية على حسابي وبسرية تامة .

سألت مذهولة : — ألن يعرف أحد ؟ ...

بسخرية ردت : طبعاً لا . حتى لو جاء الرجل الذي سيشتريك فيما بعد بطبيب مع الكاهن ليتأكد من انك (صاغ سليم) .. لا .. ربما يقدر الطبيب الماهر اذا زود بالمعدات الكافية ان يلحظ آثار العملية ... اجل ! ولكن ريثما ينكشف الأمر للجميع ويشيع خبر هذه العمليات ، لن تواجها هذه الورطة ، لذا سارعا باتمام صفقة زواج .. أجل ! ... اعتقد أن الرجل العربي سيتزوج من الآن فصاعداً على يدي كاهن وطبيب خبير يفحص له « البضاعة » ! ... ولكن يوم يتقن الطب اجراء هذه العملية ، وهو يوم قريب جداً ، سيكون على الرجل العربي أن يعيد النظر في مقاييسه الاخلاقية كلها التي يقيم بها المرأة « الشريفة » وغير « الشريفة » ...

وبعد حديث هاتفي سريع ، كتبت لنا على ورقة عنوان الطبيب ورقمه الهاتفي . قالت لنا :

ـ قولا له « متى نستطيع اصلاح الجوارب المثقوبة » ، وسيفهم « كلمة السر » . هذه التكاليف سأدفعها انا ، مقابل شيء واحد : ان تخبراني بعد العملية ، هل انتهت المشكلة حقاً بالنسبة إليكما ؟ ...

ـ لماذا ؟

ـ لأنني اريد ن أعرف لمن اكتب ، وعلى من اتلو مزاميري ! .. اريد ان اعرف هل انتنّ حيوان داجن يستحق فعلاً ان يعامل بالطريقة التي يعامله المجتمع بها ؟ ..

ـ لماذا ؟

ـ لأنه اذا كان وجودكن كله ومشاعركن كلها هي مشاعر اليهودي البخيل الذي يملك بضاعة واحدة تتوقف حياته على حسن الاتجار بها ، واذا كنتن راضيات بذلك ، فسوف امزق هذه الصفحات التي كتبتها قبل ان ادفع بها الى المطبعة . من الواضح انكن فهمتن كل ما قلته في كتبي خطأ ... وظننتن انني احرضكن على المقامرة « برأسمالكن » ... انني احرضكم على ان تلحظوا انسانيتكم (عذراً لكنني اكره نون النسوة) ..

وخرجنا من عندها . وبرت بوعدها . وبر الطبيب بوعده . ولكن شيئاً لم يعد كما كان ...

علياء بدت مريضة بعد العملية . ظننت ان ذلك بتأثير « البنج » ، والخجل والممرضة التي كانت تنظر الينا باحتقار ، والطبيب الذي اختبأت خلف صمته قهقهة ساخرة ... ولكن الأمر تزايد يوماً بعد يوم ...

كانت تبدو كمن اضحى ذليلاً .. قالت لي ذات مرة فجأة : « لم اعد احتمل هذا العار . وقد بدأ العار يوم رضيت إجراء العملية ، لا قبل ذلك كما توهمنا ! » ثم تغيبت عن الصف ذات يوم ، وشاهدت من النافذة الستائر البنفسجية تخفق في شقة وسيم بعد ان تسدل ...

ولمع في خاطري شيء رهيب ...

وليلاً جاءت مغسولة بالمطر والدمع ... قالت : لقد انتهى الكابوس

وتخلصت من آثار العملية . عدت الى وسيم ! ...

وشعرت انني احسدها ، وانني لا اجرؤ على ان افعل الشيء ذاته ... كنت مريضة الروح مثلها ، مجلودة بالاحتقار الداخلي المقهور ... ولم اكن اعرف كم يمكنني ان اقاوم خوفي من السكاكين والخناجر ...

كنت كل صباح اسارع الى الصحف لأقرأ صفحة الجرائم ، واختار جرائم الشرف بالذات واستغرق في قراءة تفاصيل كيف ذبح أخ اخته من الوريد الى الوريد ، وأتأمل صور الذبيحة فأرى صورة وجهي في كل صورة لجسد مذبوح ، او كيف طعنها ابن عمها بالسكاكين ثم رشف رشفة من دمها ثم ذهب الى الشرطة مزهواً ، أو كيف شاركت الأم في قطع رأس فتاة وجزّه عن جسدها وكيف حملوا رأسها في الكيس الى القرية ليعرضوه على كبارها شهادة لهم في حسن السلوك الاجتماعي ... وكنت اتخيل انني انا التي تقتل وتذبح ويجز رأسها ويمزق جسدها ، واحس بأن الثقوب النازفة تنفتح في جسمي كله ... وأمضي يومي نازفة ممزقة وخوفي على علياء يتزايد ...

وخيل اليّ ذات يوم انني لاحظت بطنها يتكور ، وقلت لها ضاحكة : انت بحاجة الى « ريجيم » ...

وليلتها سمعت صرختها من الشرفة : يا مريم ... لماذا ناديتني تلك الليلة يا علياء ؟ لماذا اردتني ان اشهد مصرعك المروع ؟ .. اسرتك حولك يندونك في الصحراء ثم تفور عاصفة من الرمل وتدخل في عيوني ، واراك عبر سحابة الرمل والدموع تجرعين كأس الديمول ، وأمك سارعت الى النافذة تغلقها كي لا يرى الناس ، كان من الضروري ان تموتي كي لا تعيش « الفضيحة » . لماذا كانت الريح باردة هكذا ، باردة تخترق اللحم والعظام والاعصاب ، باردة كنظرات أهل العريس الحذرة الى العروس ريثما يخرج اليهم العريس بقطعة من القماش ملطخة بالدم فتدق طبول اهل القرية ويبدأ الرقص البدائي حول الذبيحة المضمخة بالدم والغربة ؟ ...

لماذا ظللت صامدة جامدة ، وفي رأسي تصاعدت ابخرة سود كأنما انفتح

في دماغي شق من شقوق الجحيم ؟) ...

« البسي الفستان يا عروسة ... العريس يريد ان يراك » . تقول أمه .. أرتدي الثوب الابيض المزين بالدانتيل الذي كلف خطيبي المغترب الثري ما يفوق راتب ابي الموظف المستور طول حياته مع رواتبه التقاعدية بعد موته أيضاً ! ... فستان العرس الأبيض ... يدهشني كيف تقف الفتيات امام واجهات المحلات يتأملنه بشهية ولهفة وتلتمع في عيونهن بالونات العيد المضيئة . دون ان يدرين انهن يتأملن كَفَنهُنّ ...

لين ... يجب ان ارى لين . وان احرضها على كتابة مقال تطالب فيه البنات بالاضراب عن ارتداء ثوب العرس الابيض ما دام في الحقيقة ليس اكثر من صرة تلف بها البضاعة . هذا في احسن الاحوال ، وهو كفن ابيض في اكثر الأحوال ... أما بالنسبة إلي فهذا الثوب الابيض ليس كفني ، إنه ثوب الجلاد الذي يرتديه حين يُنفّذ حكم الاعدام بشخص ما ... وانسا سأنفّذ احكاماً كثيرة على طريقتي ... اذا كانت علياء قد استساغت دور الضحية فأنا افضل دور الجلاد ... واذا كانت قد هربت قرفاً ، فها انا اغطس بكليتي في المستنقع واقبل اللعبة ضمن شروطها القذرة ، شروطهم ، وانتصر ايضاً ... منذ احتلتني تلك الغيمة السوداء تاركة في فمي طعم الرماد صرت افهم لغة عالمهم ، واعرف كيف اخاطبهم بها .. أجل .. سأكون سيدة مجتمع من الطراز الاول ... ستتحدث الصحف عن ثوب زفافي واناقتي ، وستقصدني المحررات فأحاضر عن السعادة الزوجية وأملأ أعمدة الصحف عن فضائل الوفاء الزوجي .. وقد امارس رسم لطخ بالدهان واصير رسامة تجريدية مشهورة .

آه ... أهلاً عريسي ... (**البضاعة جاهزة**) ... أمي توشوش في اذني : اسمعي يا بنت . أطلبي منه الليلة ان يكتب لك « بناية » . الليلة قبل الغد . والغد قبل بعد غد . « اسحبي » منه كل ما تستطيعين قبل ان يمل . فالرجال يملون بسرعة . والاغنياء يملون قبل الفقراء . والمرأة جانحها مكسور ... والفرصة تأتي في العمر مرة ...

أزيحها عني . اخرجها من الغرفة . خطيبي واقف على العتبة يتأملني . منذ احتلتني الغيمة السوداء وانا افهم هذا كله ، بل واكثر منه بكثير . مسكينة امي ، كم هي ساذجة ، ومبتدئة : **انا جامعية** ، وبتفكيري الاكثر نضجاً استطيع ان اكون اكثر شراً ما دام لا أحد يسمح لي بأن اكون شيئاً آخر ...

ثم إنني جميلة ... وشابة ... تعال يا سعادة المغترب شهال بك ... اجل انظر اليّ هكذا ... أجل .. تأمل السذاجة في وجه خطيبتك مريم العذراء .. لا ، ارجوك الا تقبّلني ، في خدّي فقط ، أجل ، هكذا . لاحظ كيف أتورّد خجلاً كالعذارى . يلذ لك ذلك . اعرف . يثير شهيتك الى الاغتصاب . منذ انتحار علياء – لن اقول مقتلها لأن البنت المهذبة لا تسمي الاشياء باسمائها – عرفت ستائر كثيرة في شقق كثيرة ... ستائر حمراء زرقاء خضراء صفراء ... ورجالاً كثيرين كانوا رجلاً واحداً هو تاره اخضر أو احمر او ازرق او اصفر .. كانت عذريتي تثيرهم اكثر مما اثار عطائي وسيم ذات يوم ... كانت تذكرهم بشهوة امتلاك سلعة مختومة، فضّ رسالة مغلقة ... أجل ! ... لقد تعمدت ان اجعل بطاقات الدعوة الى عرسي مختومة بالشمع الاحمر . (صرعة) تحدثت عنها بيروت باعجاب وبدأت العائلات الثرية تنقلها عني ... نعم . بطاقة الدعوة مختومة بالشمع الاحمر ، والختم لغة سرية مبهمة عتيقة ... كنت ادعوهم لحضور عرسي ؛ انا عذراء التكنولوجيا ، وهم قبيلة البدائيين الذين ما يزالون يقفون امام الابواب يتسولون خرقة ملطخة بالدم يخرج بها العريس عند الفجر وتطمنهم الى ان الدنيا بخير ... آه كم سخرت ... كم ضحكت وانا اكتب عناوين بطاقات الدعوة بنفسي .. بطاقة بطاقة ... آه كم سأسخر ..

شهال بك ، عيب . لا تمد يدك الى صدري . اعرف انني قد ابرزته من الفستان ؛ ولكن ذلك جزء من طريقة عرض البضاعة على طريقة دكاكين شارع الحمراء ... ولمس البضاعة ممنوع في البلدان الراقية .. وانت طبعاً

تعرف ذلك ما دمت تصطاف في لندن وتشتي في مونت كارلو ... نعم . لمس البضاعة ممنوع ، والصفقة لم تتم بعد ولكل شيء أصول ... آه ... انك تلهث ، ستلهث كثيراً، فوفر انفاسك ، اخشى ان تموت الآن قبل ان تتم الصفقة ... ارجوك ، لا تمت الآن ، انتظر ريثما نوقع الأوراق كي اقبض ولو جزءاً من اجري عن اداء دوري في المسرحية ... اجل ! انني أتدلع عليك يا شهال بك .. اعرف انك تحب ذلك ... اتدلع واتظاهر بالخوف منك ، ما رأيك بنظرة الشوق المشبهب بالخوف التي الصقتها على عيني بين الرموش المستعارة والكحل؟ ... عظيمة اليس كذلك؟ .. الدليل انك اخرجت منديلك وبدأت تمسح عرقك ... لا ... هدوءاً يا ابن الخمسين ... اشحذ سكينك بصبر وأناة ... يبدو انك تفقد صبرك باسرع مما توقعت . كنت اعرف كم انا جميلة لكنني لم اكن ادري اهمية نظرة البراءة والسذاجة حينما تكسو وجهاً جميلاً وكم تجرد الرجل العربي من مقاومته ...

تسألني : ماذا اريد هدية للعرس ؟ ..

آه .. الخاتم الماسي كان مدهشاً ولكن لي رغبة اخجل من الافصاح عنها .. لا . لا تلح . انني اخجل . يبدو انك تصدق انني سأموت خجلاً ... حسناً! لألفظ رغبتي مع (انفاسي الاخيرة !) ... هنالك بناء تجاه الجامعة اسمه « بناء البستان » فيه شقق مفروشة للايجار ، اريد ان تشتريه لي ... البناء كله .

– ولو (تكرم عينك) . هديه بسيطة. بناية فقط؟ كل هذا الجمال وبناية فقط ...

تدخل امي التي كانت تسترق السمع طبعاً و « تزلغط » يسألني شهال بك ، ولكن لماذا هذه البناية بالذات ؟ ... اقول : لانني كنت دوماً جالسة في الصف ، « زهقانة » من الدروس، فالبنت يا شهال بك خلقت للبيت لا للجامعة مع الرجال ...

يقول : برافو .. عظيم .. تابعي ..

اتابع : وكنت اقول لصديقتي المرحومة علياء .. يا علياء ... يا ليتني

بدل هذه الجارة الواقفة على الشرفة تدلل أولادها وتطبخ لزوجها .. لقد كانت المشاهد (العائلية) في تلك البناية هي اول ما فتح عيني على عظمة وضرورة السعادة الزوجية .. ولولا ذلك لما قبلت الزواج ولما تزوجنا ولكنت تابعت دراستي الجامعية ... شهال بك يهتف : البناية لك . يخاطب أمي وجارتنا ام علياء : تربية عظيمة . البنت « جوهرة » ... سأهبط لاستقبال المدعوين . اسرعي يا حبيبتي ...

انا جوهرة . اجل . انا جوهرة اللعنة السوداء . انا العين المقتلعة من وجه إله مليء بالقسوة تفوح منه رائحة الدم والسخرية .

اقول لأمي : اخرجي انت وجارتنا اريد ان ابقى وحدي قليلاً .

أسمع صوتي ، قاسياً ، حيادياً ، آمراً .. للمرة الاولى اسمع صوتي الجديد .

امي ايضاً ، تدهشها اللهجة ، ولكنها تغادر الغرفة ، فابنتها صارت ثرية وهامة .

اركض الى الهاتف . الفندق فخم لحسن الحظ . ذلك يوفر سماع صوت « السنترال » . ادير رقم هاتف وسيم . يرد صوته الكسول . وسيم . أهلاً . أنا مريم . هل تذكرني ؟ ...

يقول باحترام لم اسمعه قط في صوته : مريم . طبعاً طبعاً . اهلاً مدام شهال . الف مبروك . الف مبروك ... قبل ان يتابع معزوفته أقول له : انا مسافرة غداً صباحاً الى شهر العسل وسأعود بعد اسبوعين . أحب ان نلتقي بعد ذلك .. كما كنا من زمان ... فالمشاكل العذرية ومخاطر الحمل تكون قد انتهت ، وزوجي كثير الاشغال والترحال ..

يقول : طبعاً ... اتمنى ذلك ... اين نلتقي ؟

اقول : في شقتي .

— شقتك ؟ ..

— اعني في شقتك . البناية كلها صارت ملكاً لي . اشتراها لي زوجي

هدية للعرس . بالمناسبة ، سأحضر لك معي من اوروبا ربطات عنق ثمينة ، وسترتديها لي على التلفزيون ...

بذل ناعم الصوت ، يقول : امرك يا سيدتي ...

– بالمناسبة ، ارجو ان تبحث عن شقة اخرى . أريد ان استعمل هذه الشقة بالذات لأموري الشخصية .

– امرك يا سيدتي .

امرك يا سيدتي ... كم سأسمع هذه الكلمة بعد الليلة . كم ستنحني رؤوس لتقبل يدي . بيروت كلها ستأتي الى عرسي ... بيروت المال والوجاهات ستركع اعواماً طويلة عند اقدامي ريثما يذوي جمالي ، وحتى بعد ان يذوي جمالي ستظل راكعة ما دام مالي لم يذو... انني كنت دوماً ارى في الصحف صوراً لنساء كأنهن المومياءات الخارجات من قبورهن ، يرتدين المجوهرات ويلففن حولهن الفراء ، ويظهرن في المجتمعات ويحوم حولهن شبان صغار مساكين .. اجل .. ستظل بيروت راكعة عند اقدامي ما دمت أراعي قواعد اللعبة القائمة ، وافهم اشارات المرور الحمر والخضر ، التي تعارفوا عليها ، واعرف كيف اشتري الضوء الاخضر حين أريد ...

ولكن لين ...

سأهتف لها ... لا ادري لماذا احس بحاجة لاخبارها بخاتمة القصة . ثم انها هي طلبت مني ذلك . سأحدثها عن انتصاري .. وعن هرب علياء ... اهتف اليها . اقول لها اشياء كثيرة .. امي تقرع الباب ... وانا اتحدث ... وامي تناديني من الخارج .. وانا اروي كل شيء للين . أمي تدفع الباب وتدخل غاضبة ، ولين ترد علي بعبارة واحدة : تافهتان . انت وعلياء تافهتان ... وانت تافهة حقيرة .

ها انا اهبط الدرج ملكة اسطورية الى جمع المدعوين ...

ها انا اضيء .. ها عدسات المصورين تلتمع ... كلمات لين تعذبني ...

غداً ، بعد شهر العسل ، اشتري دار النشر التي تنشر كتبها والمجلة التي تكتب فيها .. وأطردها

اجل ... صفقوا لي .. ألا ترون كم انا ساحرة ومشعة .. انا عذراء بيروت ١٩٧٣

(آه ... يجب ألا انسى الاتصال بالحلاق الوسيم قبل سفري لاضرب له موعداً ولاعطيه عنوان شقتي البنفسجية)...

الساعة ٢ يوم ٢٩ ـ ١ ـ ٧٣

فهرس

الإهداء

أهدي هذا الكتاب الى الرجل الذي أحب

غادة



□ انطلاقات الخيال الخلاق لدى غادة السمان تجعل منها واحدة من الاصوات الاكثر تجديداً واصالة في الادب العربي.

البروفسور ايروس بالديسيرا

□ ملحمة من عبارات متفجرة، غير انها على الرغم من ذلك سلسة لا إبهام فيها ولا غموض، ترجم التخلف وتفضح الزيف وتهدم القواعد غير المستندة على اي اساس متماسك مما يشتهيه كل مفكر حر، ويهواه كل اديب حي. وأرجو ان يصيب رجمك كل جزء من البلاد من المحيط إلى الخليج وانا موقن بحسن النتيجة

ذو النون ايوب

□ «الدانوب الرمادي» - اولى قصص «رحيل المرافىء القديمة» هي واحدة من اجمل القصص «الحزيرانية»، واكثرها عمقاً وتعبيراً عن المأساة والتغلب عليها وفتح نوافذ للأمل والخلاص.

عايدة مطرجي

□ «رحيل المرافىء القديمة» ليس إضافة إلى فن غادة السمان فحسب، ولا إضافة إلى القصة العربية القصيرة فقط.. وإنما هو إضافة كيفية إلى الوعي العربي المعاصر.

غالي شكري

□ قصة «الساعتان والغراب» مثال ساطع على توجه الادب العربي إلى مواضيع جديدة تولدها التحولات الاجتماعية. وقصة الحب والواجب هنا تختلف عن القصة العربية التقليدية. ونجحت الكاتبة في إيجاد شخصية جذابة للثوري العربي الشاب.

البروفسور فلاديمير شاغال

□ الكلمة ملكة، تولد من فكر غادة السمان متوّجة حاكمة.

مي منسى

□ غادة السمان هي اليوم الكاتبة العربية بامتياز.

يوسف الخال

منشورات غادة السمان